شعر الرصافى

بيـــن

التمرد والانتماء

بقلم د/ أحمد ابراهيم خليل

تقدمـــة :

لايستطيع المرء أن يخفى إعجابه القديم بتجربة ذلك الجيل من الشـعـراء المصريين الذى ظهـر فى العـقـد الأخـيـر من القـرن الماضى ومالبث أن ملأ الساحة الأدبية بتألق طيلة الثلث الأول من هذا القرن. ولايزال تعـاقب أجيـال الشـعـراء وتوالى تجاربهم المختلفة يعـمق فى النفس ذلك الإعجاب القديم ويزيده تغلغلاً ورسوخاً فمع كثرة الشعراء المعاصرين ووفرة دواوينهم ومجموعاتهم الشعرية لايكاد القارئ يظفر بشئ يقرأه فيطربه ويهز وجدانه ويستقر فى ذاكرته لمدة تتجاوز ساعة قراءته ولايستطيع أن يزعم أنه عثر على الشاعر المعاصر الذى التف الناس حوله وراحوا يتلقفون قصائده ويتداولونها فى شغف وتأثر واحساس عميق بأنها تعبر عن نفوسهم ومايختلج فيها من آلام وآمال مهما اختلفت مشاربهم وأهواؤهم بل أقطارهم وبلدانهم كما التف الناس وتلقفوا قصائد ذلك الجيل الذهبى من الشعراء الذين يستحقون أن تعتز بهم مصر وتفخر حيث هيأوا لها أن تباهى بهم شعراء الجزيرة فى العصر الجاهلى وشعراء دمشق الأمويين وبغداد العباسيين وقرطبة الأندلسيين هؤلاء الذين تعارفنا على تسميتهم بالمحافظين. ولاينكر أحد دور العوامل الاجتماعية والسياسية فى تشكيل الملامح التى تبلورت فيها مدرسة المحافظين وفي الوقت نفسه لايمكننا أن نجحد لهم حسن استجابتهم لهذه العوامل المؤثرة فى تجربتهم وبراعة اختيارهم للطريقة التى تعاملوا بها مع ظروفهم الاجتماعية والسياسية ونجاح الأسلوب الذى استخدموه فى التعبير عن أنفسهم وحياتهم .

ومن المؤكد أن هذه العوامل المؤثرة فى تشكيل التجربة الأدبية عند الشعراء المحافظين بمصر لم تكن فى مجموعها عوامل محلية يتوقف تأثيرها عند حدود هذا القطر الجغرافية وإنما كانت ذات طبيعة عامة امتدت لتشمل الشرق العربى بأكمله. ومن ثم لاتصبح صفة المحافظة أو خصائص هذه المدرسة بعينها مقصورة على هذا النفر من الشعراء المصريين صبرى وشوقى وحافظ ومحرم والكاشف وعبد المطلب والرافعى والغاياتى ونسيم بل تتعداهم إلى شعراء من جيلهم على امتداد الخارطة العربية الفسيحة. وآية ذلك أن الكتاب والدراسين لايشيرون إلى من إلى من ذكرنا من الشعراء حتى يضموا إليهم إخوانهم السوريين والعراقيين والحجازيين وفى مقدمتهم الشاعران الكبيران جميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى .

بيد أن تشابه العوامل المؤثرة فى تشكيل تجارب الشعراء أياً كانوا لايعنى دائماً اتحادهما. ولئن تقاربت الظروف الاجتماعية التى مرت بها الأقطار العربية المتعددة فإن هذا التقارب لايلغى بصفة حاسمة أوجه التباين والاختلاف الواقعة بينها ويجب على الباحث فى تاريخ الأدب العربى الحديث ألا يتجاهل حقيقة تنوع التجارب الاجتماعية برغم اتفاقها فى الشكل العام ولايصح له إهمال أثر هذا التنوع فى نتاج شعراء كل إقليم. أن هذا التنوع والاختلاف على الرغم من الاتفاق العام فى إطار المدرسة الواحدة أمر مسلم به بين شعراء الجيل الواحد داخل الإقليم المحدود فكيف لايكون واقعاً بين شعراء الأقاليم المختلفة ؟! إنه ذلك الاختلاف الذى تتمايز به أوجه الأخوة الأشقاء ولاينفى عنهم وحدة الأصل والمنبت والأرومة .

وأعترف أن للرصافى على وجه الخصوص فى نفسى مكانة ولشعره القوى الرائق نفس الأثر المطرب والمحرك للوجدان الذى يتمتع به أبناء جيله من الشعراء المحافظين. ولم يكن يحول عندى دون ضمه إلى صفوفهم سوى رغبة ذاتية خفية فى التريث للاستيثاق من تمتع طاقته الشعرية بكل مانتوقع العثور عليه لدى الشاعر المحافظ من قوة الانتماء وحرارة التمسك بمقومات الشخصية القومية التى تعرضت فى تلك المرحلة التاريخية ذاتها لتهديد خطير واستفزاز عنيف من جهة المستعمرين الأوربيين أو هكذا أحس أبناء هذا الجيل من الشعراء على الأقل فكان رد فعلهم مارأيناه عندهم من إحياء لتقاليد الشعر العربى القديم التى اكتسبها عبر عصور ازدهار الحضارة ونقاء اللسان من شوائب الركاكة والعجمة والتمسك بالمبادئ والقيم التى نهضت على أساسها الحضارة الإسلامية العربية والاعتزاز بتاريخها ورموزها وشخصيتها ودعوة الأجيال المعاصرة إلى التحصن بها ضد الهجمات الغربية الشرسة الساعية نحو إذابتها وتمييعها .

إن من اليسير على القارئ أن يكتشف لأول وهلة الخصائص اللغوية والأسلوبية لمدرسة المحافظين بقراءة أى قصيدة فى ديوان الرصافى غير أن المسألة تتخطى هذه الخصائص السطحية وتطرح التساؤلات حول موقف الشاعر السياسى والاجتماعى الذى يحدد اتجاهه الفكرى والذى يمكن أن يتكشف من خلال تعرفنا على موقفه تجاه الدولة العثمانية على سبيل المثال تلك التى من الصعب أن تتطابق وجهة نظر الشعراء العراقيين إليها مع معاصريهم من المصريين. فالدولة العثمانية من وجهة نظر الحركة الوطنية المصرية

متمثلة فى مصطفى كامل مطالبة بالعمل على استعادة بسط نفوذها على مصر ومطاردة سلطة الاحتلال البريطانى بينما هى نفسها عند الوطنيين العراقيين أحد أسباب تخلف بلادهم وتدهور أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فأين يقف الرصافى من هاتين الوجهتين ؟! وكيف يتشكل انتماؤه فى هذه الحالة ؟! والحضارة الغربية الحديثة فتنة بعض المثقفين والرغبة فى استيعابها ونقلها إلى الشرق العربى هى شغلهم الشاغل وهى ذاتها مصدر قلق وتوجس لدى أصحاب الاتجاه المحافظ فما موقعها من خلال رؤيته ؟! وكيف ينظر إليها ؟! وكيف يواجه التناقضات القائمة بين قيم الحضارة المادية وبين قيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه ؟!

وتقوم هذه الدراسة على اختبار صحة الافتراض بأن ديوان الرصافى يسجل عليه عدة مواقف يكون فيها إلى التمرد أقرب من إلى الانتماء فما صحة هذا الافتراض؟ وإلى أى حد تصطدم الروح المتمردة عنده بدعوى تصنيفه ضمن شعراء المحافظين ؟!

ولابد لنا من أن نجعل موقفه من الدولة العثمانية هو نقطة ارتكاز البحث ذلك أنها فى الوقت الذى كانت إدارتها المتخلفة للعراق تقف عقبة حائلة دون نهضته وتقدمه كانت رايتها المرفرفة على أرض الرافدين تجسد الدولة الدينية وترمز إلى وحدة المسلمين وتملأ فراغاً سياسياً تهفو إليه مطامع القوات الأجنبية فوجودها يعنى التصدى للعلمانية والغرب والتفتت ولايعفيها مع ذلك من انتشار مظاهر الفساد والفقر والجهل والتخلف. والرصافى كأى شاعر لايملك أدوات البحث العلمى والدرس الدقيق حتى يستطيع أن يفصل بين

هذين الوجهين الذين يمثلان حقيقة الدولة العثمانية وهو ليس عالماً اجتماعياً أو مفكراً سياسياً وإنما هو شاعر ينفعل وجدانه وتحتدم عواطفه ويتأزم ضميره فيتخذ الموقف الانفعالى بالقبول التام أو الرفضى المطلق أو يقف متردداً بينهما منبعثاً فى كل حال من صدق شعورى ليس دائماً متفقاً مع الواقع التاريخى ومتطلباته فرؤية الشاعر كل شاعر رؤية وجدانية مصدرها كوامن النفس والحدس والشعور وليست رؤية عقلية معتمدة على حساب المكاسب والخسائر وربما كان هذا الطابع الوجدانى لرؤية الشاعر هو دليل صدقها ومصدر قوتها وتأثيرها فى المتلقين .

فإذا تيسر لنا ترجيح إحدى كفتى الانتماء والتمرد عند الرصافى فى تجاه الدولة العثمانية حاولنا بعد ذلك تتبع تجليات هذا الموقف أياً كان فى المرحلة التالية من حياة الشاعر وفى الميادين السياسية والاجتماعية والأدبية المختلفة .

عوارض التمرد :

نشأ الرصافى فى بيئة عربية من الطبقة المتوسطة تعتز بعروبتها وتتمسك بقيمها الدينية والأخلاقية وترى في تلقى علوم الشرع واللغة أمارة من أمارات الكرامة والمروءة فنشأته على احترام هذه القيم وعودته إكبارها فى نفسه وصيانتها والدفاع عنها منذ نعومة أظفاره .

ولم تكن أسرته من شريحة اجتماعية تباعد بينها وبين الطبقات العريضة من الفقراء الكادحين فتفتحت حواسه على مشاهد البؤس والشقاء المنتشرة حوله فى أحياء بغداد الشعبية وفيما يحيط بها من قرى ومدن وعافت نفسه هذه المظاهر التى تستنزف المشاعر المرهفة وتؤذى الوجدان والضمير اليقظ الحساس. ومن هنا كان من البدهى أن تتلمس موهبته المتفتحة طريقها إلى عالم الشعر الرحيب من خلال النقد السياسى والهجاء الاجتماعى .

ويمتلئ الجزء الأول بنماذج قوية من شعر التحريض على الثورة ونبذ الاستكانة والاستسلام انظر على سبيل المثال قصائد «تنبيه النيام»(*) صـ٢٠٣ و «سوء المنقلب» صـ١٠٥ و«إيقاظ الرقود» ص١١٦. «رقية الصريع» ص١٦٢ وفيها ينادى قيمة العدل المفتقدة فى لهفة وتضرع وإلحاح ينم عن ضيق شديد بالأوضاع الاجتماعية الجائرة التى يعايشها مجتمعه نتيجة للفساد السياسى الضارب بجذوره منذ أزمان سحيقة: صـ١٦٢

(*) النسخة المستعملة فى البحث من ديوان الرصافى ط دار الحياة بيروت وهى غير مؤرخة .

ياعدل طال الانتظار فعجـــل ياعدل ضاق الصبر عنك فأقبل
ياعدل ليس على سواك معـول هلا عطفت على الصريخ المعـــول
كيف القرار على أمور حكومة حادت بهن عن الطريق الأمثل
فى الملك تفعل من فظائع جورهـا مالم تقل، وتقول مالم تفعـل
ملأت قراطيس الزمان كتابـه للعدل وهى بحكمها لم تعـدل
أضحت مناصبها تبع وتشتـرى فغدت تفوض للغنى الأجهـــل
تعطى مؤجلـه لمـــن يبتاعهـا ومتى انقضى الأجل المسمى يعزل
فيرح بشرى ثانياً وبما ارتشى قد عاد من أهل الشراء الأجـزل
فيظل فى دار الخلافة راشيـاً حتى يعـود بمنصـــب كالأول
سوق تباع بها المراتب سميـت دار الخلافة عند من لم يعقـل

وبعـد أن يكشف عن الطريق التى يعين بهـا كبـار رجال الدولة معـتمدين على الرشاوى الضـخمـة يسوقـونها إلى الباب العـالى فى الأستـانة ينتـقل إلى مخـاطبة عـامة الشـعب متـأثراً بنشـأته وثقافـته الدينيـة ومحاولاً التأثير فى جمهوره مستخدماً المصطلح الدينى الذى له سـيطرة كبـيـرة على النفوس وقـدرة بـالغـة على التـأثيـر فى العـامـة وتحريكهم فهل مايرون من فساد وبغى هو مانزل به الكتاب أو ماجاء به الشرع الحكيم . صـ١٦٣

يأمة رقدت فطال رقادهـــا هبى وفى أمر الملوك تأملـــى
أيكون ظل الله تارك حكمـه الـ منصوص فى أى الكتاب المنزل
أم هل يكون خليفة لرسولـــه من حاد عن هدى النبى المرسل
كم جاء مخن ملك دهاك بجـــوره ولواك عن قصد السبيل الأفضـل
يقضى هواه بما يسومك فى الورى خسفاً وينقم منك إن لم تقبلـــى

وكما يستعين بالمصطلح الدينى ويعتمد على إبراز المفاهيم الإيجابية للإسلام يلجأ إلى التحريض على الثورة - إلى إثارة النخوة والحمية بالتقريع والهجاء :

وقد استكنت له وأنت مهانة حتى صبرت لفتكه المستأصل
بات السعيد وبت فيه شقية تستخدمين لغبة المسترسل
تلك الحماقة لاحماقة مثلها حمقاً فهل هو من صحيح تعقل

وتتكرر هذه المعانى نفسها بتنويع وتصاغ وفقاً لمقتضيات الأحداث فى القصائد المشار إليها وغيرها من شعره المبكر فيعرض صوراً للفساد الاجتماعى ويربط بينها وبين فساد الولاة ويستثير فى سبيل تغييرها حمية السامعين منوهاً بنبذ الدين للظلم وتنفيره من الاستكانة للظالمين وإباء النخوة والمروءة والكرامة الانسانية للحياة على هذا النحو المزرى .

وفى قصيدة «سوء المنقلب» يتفقد أنهار العراق المتعددة وماكان يجرى فى بغداد من جداول تسقى جناتها الفيحاء أيام عزها ثم يصور أحياءها وقد داهمتها غلالة من البؤس والشقاء ويتحسر عليها ويلوم أهلها لخنوعهم وإذعانهم .

وفى قصيدة «إيقاظ الرقود» يعرض صوراً جديدة للفساد حين تنتدب الأستانة كتائب من حامية العراق لمحاربة ابن الرشيد وابن سعود فى الجزيرة فلا تنسجم المعارك ولاتلف عن إهلاك شباب الأمة وتركها تعانى اليتم والثكل والترمل ثم يلجأ لتلطيف هذه الصورة المأسوية الداكنة إلى السخرية المريرة فيخاطب السلطان عبد الحميد: ص١٢١ .

أقول وليس بعض القول جداً لسلطان تجبر واستبـــدا
تعدى فى الأمور وماستعدا ألا ياأيهـا الملك المفـدى
ومن لولاه لم نك فى الوجـود
تنعم فى قصورك غـير دار أعاش الناس أم هم فى بوار
فإنك لن تطالب باعتـذار وهب أن الممالك فى دمـار
أليس بناء يلدز بالمشيـد
جميع ملوك هذى الأرض فلك وأنت البحر فيك ندى وهلك
فأنى يبلغوك وذاك إفـك لئن وهبوا النقود فانت ملك
وهـوب للبـلاد وللنقـود

ويمتد هذا النقد السياسى العنيف الذى لامزيد عليه ليشمل «آل السلطنة» جميعاً فى القصيدة التى تحمل هذا العنوان ص٤٠٩، وفيها يقول عنهم :

تركوا السعى والتكسب فى الدنـ ـيا وعاشوا على الرعية عالـة
يأكلون اللبات من كسد قـوم أعوزتهم سخينة فـى نخالـة
فكأن الأنـام يشقـون كـداً كى تنال النعيم تلك السلالـة
وكأن الإله قد خلـق النـاس لمحيا آل السلاطـين آلـة
قد رضينا بذاك لـولا عتـو أظهروه لنا على كـل حالـة
مابهم وغيرهم عن بنى السوقـة إلا رسوخهـم فـى الجهالـة

وبعد أن يشنع بإسراف آل السلطنة فى الأستانة ويوبخهم على معيشتهم المترفة على حساب ملايين الجائعين من الشعب ويتحسر على تحمل الأمة جرائر جهلهم وسفاهتهم يختتم القصيدة بأن هذه الأمور كلها لاهى من الدين ولاهى من الاشتراكية .

ليس هذا فى مذهب الاشتراكـ ـية إلا من الأمور المحالـة
وهو فى الملة الحنيفية البيضاء كفر بربنـا ذى الجلالـــة

ولاشك أن هذا الهجـاء العنيف والتـقـريع المفـزع لم يكن ليـمـر بســـهـــولة دون أن يدخل الشـــاعـــر مع السلطة دائرة المصـــادمـــات والمطاردات فـيـسـجن حيناً ثم ينفى حين يعـجـز السـجن عن إسكاته ويظل لسانه فى سجنه ومنفاه يطلق قذائفه النارية المتأججة ويسجلها ديوانه فى عـدة قـصـائد يتكرر فـيـهـا هجاؤه اللاذع للسلطة ونقـده السيـاسى الحاد مضافاً إليـهما صور كئيبة لمرارة العيش فى قراءة السجن والحزن على الوطن والحنين إليه فى ديار المنفى. انظر فى ذلك قصـيدتى «السجن فى بغداد»، «مـارأيت فى بك أوغلى» وفى هذه الأخيرة يسهب فى وصف ذلك الحى من أحياء الأستانة المتألق بأنوراه المتلألئة وشوارعه العريضة ومبانيه الفخمة ثم يتذكر بغداد فيأخذ فى التأسف على مـاتعانيه دار السلام ذات التاريخ العريق وهى ترسف غـارقـة فى أغـلال الجهل والفـقـر والظلام. ويربط الشـاعـر بين جـزئى القصيدة التركى والبغدادى بخيط قصصى نحيل فيدير حواراً سريعاً بينه وبين فتى من أصحابه يلوم على زيارة ذلك الحى الشهير بحاناته وملاهيه وكثرة مظاهر البذخ والمجون فيـه فـيـزعم الشـاعـر أنه قـصـد بزيارة مـلاهى بك أوغلى أن يتلهى ولو ساعـة عن ذكـر شـقـاء العـراق الذى طالما أضناه ونغص عليه صفو حياته . صـ٢٣١

فقد لامنى لما رآنى بحبهـــــم فتى منه قحف الرأس ممتلئ حمقـاً
فقال أفى الحى الذى شاع فسقـه تجول ألم تمنع عمامتك الفسقـــا
فقلت أجل إن العمائم عندنـــا لتمنع فى لوثاتها الفسق والرزقـا
ولكننـى ماجئـــت إلا توصـــلاً لذكرى شقاء فى العراق به شقـــى

شقاء تمطى فى العراق تمطيـــاً وألقى جراناً لايزحزح واستلقـــى
فلهفى على بغداد إذ قد أضاعها بنوها فسحقاً للبنين بهـا سحقـاً
جزوها عقوقاً وهى أم كريمـــة وألام أبناء الكريمة مـن عقـــا
سأبكى عليها كلما جلت سائحاً وشاهدت فى العمران مملكـة ترقى
وأندبها عند الأغاريد شاربـــاً من الدمع كأساً لاأريد لهـا مذقاً

وهنا نلاحظ امتزاج التحسر على شقاء الوطن بشئ من التهكم والسخرية الخفيفة التى تحد من جهامة الموضوع وثقله على النفس - على أننا فى هذه القصيدة نفاجأ بظاهرة لم نعهدها فى القصائد السابقة إذ يمتزج النقد السياسى بقدر من التمرد على الأعراف الأخلاقية والقيم الدينية وإن كان بقدر محدود وبطريقة غير مباشرة وبدلاً من أن يستشهد فى نقده بمبادئ الدين ويستخدم مصطلحه كما رأينا من قبل يبدى شيئاً من التهاون وقلة الاكتراث. وقد تنم هذه الظاهرة المحدودة عن مدى معاناة الشاعر الروحية وتمزقه النفسى بين ماهو كائن ومايجب أن يكون وسنرى فى بعض قصائده التأملية اختلاجات مضطربة توهم بتمرد عقدى ولكننا نرجئ الحديث عنها إلى الفقرة المخصصة لتجليات انتمائه الإسلامية لئلا ينقطع تيار استعراضنا لمظاهر العلاقة بينه وبين السلطة العثمانية .

وإذ قد رأينا صوراً صارخة لتمرد ثورى عنيف ضدها يكاد يجعلنا نجزم بأن الرصافى كان شديد العداء بالغ الكراهية والحقد على كل ماهو عثمانى أو يمت إلى العثمانيين بصلة فلنشرع الآن فى استعراض الوجه الآخر لهذه العلاقة المعقدة .

دلائل الإنتماء :

لم تغب عن ذهن الرصافى خلال تلك الحقبة من تاريخنا الحديث التى تعقدت فيها العلاقة بين الحكام العثمانيين وبين محكوميهم من العرب فى العراق والشام والجزيرة حقيقة أن الدولة العثمانية هى الرمز لوحدة المسلمين والأمل فى تصديهم لأطماع الغربيين والبديل من التفتت والإنحلال .

ونلاحظ أن هذه الفكرة كانت بمنزلة الدعوة المقدسة التى تحمس لها كثير من المصلحين والمفكرين فى الشرق العربى مثل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والتف حولها الشعراء المحافظون فى مصر وبالنظر إلى السلبيات الشديدة التى يعانى منها نظام الحكم العثمانى فى مطلع القرن العشرين لم يكن هناك من حل فى نظر هؤلاء جميعاً سوى الانقلاب على السلطان عبد الحميد والتضحية به فى سبيل إصلاح النظام وتثبيت الدستور وإنقاذ الدولة. ولذلك نرى الرصافى يتحمس بحرارة وصدق للدعوة إلى الإصلاح ولدعاتها من الأتراك والعرب ويبارك إنقلابهم على السلطان عبد الحميد ويفرح بانتظارهم على الحركة الرجعية المضادة ويستبشر كل الخير بإعلان الدستور العثمانى ويبنى على حركة الإصلاح السياسى سنة ١٩٠٨ فى الأستانة وفى الولايات آمالاً كباراً. على أنه فى الوقت نفسه يشعر بالقلق العميق حين يلاحظ أن الإصلاحيين من الشبان العرب يعقدون مؤتمرهم فى باريس سنة ١٩٠٩ ويذكرهم بأطماع فرنسا الاستعمارية فى الشرق وبأفعالها النكراء فى الجزائر وتونس ثم يغضب عليهم أشد الغضب حين يغالون فى المطالبة باللامركزية، ويرى فى تلك الدعوة إيذاناً بتفكك الدولة الإسلامية الواحدة وانهيار وحدة

الأمة التى ماتزال تحاول جمع شتاتها وضم قواها فى سبيل مواجهة جشع الغربيين وعدوانهم. إلا أنه حين يلحظ إنحراف الإصلاحيين الأتراك من حزب الإتحاديين إلى العصبية النورانية واستهانتهم بالعرب واعتمادهم سياسة التتريك فى العراق والشام يلومهم على ذلك ويهجوهم هجاءً سياسياً عنيفاً ويجد نفسه مضطراً لدعوة العرب إلى الثورة على هذه السياسة الكائنة غضباً لكرامتهم ومطالبة بحقوقهم ويبقى مع ذلك محافظاً على الوفاء للدولة العثمانية وعندما تنشب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ يأخذ جانب العثمانيين ويبشرهم بالنصر ويدعو العرب والمسلمين إلى الوقوف صفاً واحداً تحت لواء دولة الخلافة ويحزن أشد الحزن لسقوط بغداد فى أيدى الحلفاء، ويعاتب فى رقة جنود الأتراك لمسارعتهم بالانسحاب منها وتركها مكشوفة أمام الغزاة ويعتذر فى تأثر عن عجز العراقيين عن مواجهة الأجنبى الزاحف فى غطرسة وكبرياء وتنقطع الأواصر والصلات بين الأستانة وبين بلاد الرافدين بهزيمة الأتراك فى الحرب ومع ذلك تبقى الصلة الوجدانية الحميمة تربط الشاعر بهم فيفرح لانتصار الكماليين فى معاركهم ضد اليونان والأرمن بقدر ماحزن لسقوط أدرنة فى أيدى أعداء الدولة العثمانية وحتى بعد سقوط الخلافة سنة ١٩٢٣ وقيام الجمهورية التركية الحديثة يظل الرصافى متتبعاً لأخبار القوم مراقباً لمحاولة الانقلاب على الجمهوريين سنة ١٩٢٥ راجياً أن يكون فى انتصار هؤلاء الخير لأمة الترك وللشرق على العموم مما يوحى بأن ولاءه القلبي العميق لم يكن لذات النظام أو لأشخاص معينين فيه أو لمصلحة خاصة وإنما كان لما يرى فيه إمكان قيام النهضة وتحقق التطور والرقى على يديه ولما يحسبه دعامة قوية لمواجهة تحدى الغرب واستفزازه ولذلك نجده وهو العربى المعتز بعروبته مشغولاً بالشئون

التركيـــة قبـــل وبعد انقطاع صلاتها ببلاده وسقوط الدولة العثمانية.

وباستعراض الديوان نجده يتضمن عدة قصائد ترحب بحركة الإصلاحيين سنة ١٩٠٨ ، وتعتب على السلطان عبد الحميد بعد خلعه سياسة الاستبداد وتعطيل الدستور تضئ الأمة بسقوط كامل باشا الذى كان أحد رموز السلطة الفردية الفاسدة ومن ذلك قصيدة «بعد الدستور» وسقوط كامل باشا التى تهزج فرحاً بالحدثين الكبيرين: ص١١٣

سقنا المعالى من سلافتها صدفاً وغنت لنا لادنيا تهنئنـــا عزفـــاً
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنـا فأهلاً بما زفت وشكراً لمـــن زفـــا
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً وقد كان قبل اليوم لايشكر السيفـا
ورحنا نشاوى العز يهتف بغضنا ببعض هتافاً يصعق الظلم والحينـــا
ولاحت لنا حرية العيش عندمـــا أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا

لاحظ فى هذه الأبيـات كيف يدل تعبيره بكلمة «الشعب» وبإضافة الجيش إلى «نا» الفاعلين وهو الجيش التركى ووصفه بالأحرار على إحساس الشاعر الوثيق بوحدة الشعبين العربى والتركى وبأن مايحدث فى الأستانة يهمه ويؤثر فيه تماماً بقدر مايهم الأتراك ويشغلهم .

ويقف أمام خلع عبد الحميد وقفة تأمل ويدعو الملوك إلى الاعتبار فى قصيدة «وقفة عند يلدز» وهو القصر الذى كان السلطان يقيم فيه وفيها يفخر بشجاعة المسلمين وإبائهم الضيم وتحديهم للملوك الغاشمين . ص٣٨٧

إنما نحن أمة تدرأ الضيـــ ـم وتأبى أن تستكين لوالى
أمة سادت الأنـــام وطابـت عنصراً من أواخر وأوالـــى
وإذا ماغلا المليـــك رددنـــا ه ذليلاً يقـاد بالأغـــــلال
ياملوك الأنام هلا اعتبرتـــم بملوك تجور فى الأفعـــــال
ليس عبد الحميد فرداً ولكن كم لعبد الحميد من أمثـــال
فاتركوا الناس مطلقـين وإلا عشتم موثقـــين بالأوجـــال
هل طبتم مـــن التجبـــر إلا كل إثـــم عليكـــم ووبـــال

ولاشك أن المقصود بالأمة هنا أمة المسلمين تركاً وعرباً وغيرهم ولايعقل أن يكون الرصافى يتكلم باسم أمة الترك دون سواها .

ومثلما تفاءل بإعلان الدستور نجده يستبشر خيراً بمقدم السلطان الجديد محمد رشاد وحين قام هذا بزيارة البلقان سعياً وراء إخماد الثورة ا لمشتعلة به بارك شاعرنا زيارته وهنأه على سياسة العفو والمصالحة التى انتهجها مع المتمردين ودعاه لزيارة بلاد العرب وإلى جعلهم فى صدارة شعوب الدولة والإعتماد عليهم فى حمايتها والدفاع عنها فهم قوم مخلصون يوثق بهم ويعتمد عليهم . صـ٤١٢

ياأيها الملك السامى بحكمتـــه والمبدل الناس من ذل بأعـــزاز
قدعى فى وصف ماأوتينا من حكم كلا كلامى أطنابى وإيجـــازى
غزوت غزو سلام دون غايتـــه غزو الحروب فأنت الفاتح الغازى
ملكت بالعقود الأحسان أفئـدة كانت إلى السيف فيها بعض أعواز
وأنت لو شئت إرهاباً رجتتهـــم بصارم لنواص القوم جـــــزاز
لكنما خبئتهم بالعفو تأخذهـــم والعفو أفضل مما يجزى به الجازى

ثم يقول :

أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم إلى مقام على الأقوام ممتـــاز
إذ هم عماد لعرش أنت ماسكه فاضرب بغات العدا منهم بأبواز
ورض بهم كل هب إنهم فئـــة تبغى الصدود ولاترضى بأعجـاز
وهم ركاز العلى لو زرت أرضهم يوماً لأركزت فيها أى إركـاز
إن يعجز الأمر عن شئ فهم سند لو كنت ضده منهم بعكـــاز

ومن الطريف أن اعتزاز الشاعر بعروبته المتمثل فى اختياره لقافية الزاى النادرة التى صيغت القصيدة بصيغة بدوية قد ألجأه إلى بعض الصور الغريبة من مثل تشبيهه للعرب بالبازى البارع فى الانقضاض على البغاث وبالعكاز الذى يعتمد عليه فى التصدى لصعاب الأمور. وعلى أى حال فإن الشاعر يختم القصيدة بدعوته للسلطان والترحيب به فى بلاد العرب :

زر أيها الملك المحبوب موطنهم ولو زيارة عجلان ومجتـــاز
وانظر إليه بعين منك شافيـة مانابه اليوم من جهل وإعواز
ماذا على ملك الدستور من وطن لو جال منه بأطراف وأجـواز

وحين حاول بعض الرجعيين فى عاصمة الخلافة تعطيل حركة الإصلاح وتصدى لهم الجيش فخرج زاحفاً من سلانيك إلى الأستانة لقمعهم ولإزالة العقبات الحائلة دون استمرار مسيرة الإصلاحيين وانحاز الرصافى إلى جانب حركة الجيش ونظم قصيدة عصماء يحييها ويبارك نجاحها ويصور ترحيب الشعب بها ويكشف عن اهتمام عامة الناس بالدستور وحرصهم على الدفاع عنه واستعدادهم للتضحية بدماء أبنائهم فى سبيله إذ هو معقد الأمل فى الحرية والتقدم. صـ٣٨٢

مشو والوالدات مشيعـــات خرجنا وراءهم والوالدونـــا
يقلن وهن من فرح بـــــواك وهم من حزنهم مبسمونـــا
على الباغين منتصرين سيروا وعودوا للديار مظفرينـــا
ولاتبقوا الذين قد استبـــدوا وراموا كيدنا وتخونونـــا
فإن لم تنقذوا الأوطان منهـم فلستم يابنين لنا بنينـــا
فقد هاجوا على الدستور شراً بدار الملك كى يستعبدونـــا
هم الأشرار باسم الدين قاموا فعاثوا فى المواطن مفسدينا
فما تركوا من الدستور (شورى) ولاأبقوا لنغمته (طنينـــا)
وماأنسى التى برزت وقالـت وقد لفتوا لرؤيتها العيونـا
ألا ياراحلين لحرب قـــــوم لئام ضيعوا الوطن الثمينـا
خذونى للوغى معكم خذونـى ممرضة لجرحاكم حنونـــــا
وإن لم تفعلوا فخذوا ردائـى به سدو الجروح إذا دمينـــا

لقد نظم الرصافى هذه القصيدة أثناء إقامته بالأستانة حين وقع مايصفه من أحداث أمام عينيه فعايشه وأحس إحساس العامة به ونقل نبض هذه المشاعر الحارة المتدفقة إلى أبياتها فلا نحس فيها بغربته عن الأحداث ولاعن القوم المنفعلين بها بل نجده يشاركهم التأثر والانفعال فى حماسة وامتزاج مثير .

إختبار انتمائه بمواجهة دعاة التمرد :

لقد تهيأ للرصافى بفضل مخالطته لأهل السياسة والرأى فى الأستانة والشام ومصر بصيرة نافذة وقدرة على تمييز صحيح الأمور من سقيمها مما جعله يؤازر الإصلاحيين العرب ويبارك حركتهم مادامت داخل نطاق الدولة العثمانية فلا بأس عليهم فى أن يختلفوا

مع الحكام ويجهروا بمعارضتهم ويتحمسوا للإصلاح السياسى والاجتماعى من داخلها حتى إذا انزلقت أقدامهم إلى موالاة الأعداء والاستعانة بهم على أقرانهم المسلمين من الترك بعقد مؤتمرهم المناوئ للسلطة فى باريس توقف الرصافى ولم ينخدع بحماستهم وعلو صياحهم إذ لم ير فى فرنسا غير إحدى الدول الإستعمارية الكبرى الطامعة فى وراثة الامبراطورية العثمانية والمتحينة الفرصة للإنقضاض على بلاد العرب ولم يغره تشجيع الحكومة الفرنسية لحزب الإصلاحيين وتبشيرها بعصر الحرية الديمقراطية والعلم ولم تجعله هذه الشعارات الرنانة ينسى مافعله الفرنسيون فى بلاد المغرب العربى وتنشب على أثر هذا الخلاف بينه وبين أقطاب حزب الإصلاح معركة سياسية فكرية يسجلها فى عدة قصائد من ديوانه منها «ماهكذا» و«ليلة نابغية» وقد كان من قبل امتدح الإصلاحيين وبارك جهودهم بقصيدتى «أه ة العرب» وفى «معرض السيف» حين كانت اجتماعاتهم لاتتجاوز بيروت والأستانة أما وقد أصبحت فى باريس فإن رأيه أن: صـ٤٠٤

لو كان فى غير باريز تألبهم ماكنت أحسبهم قوماً مناكيب
لكن باريز مازالت مطامعها ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويباً
ولم تزل كل يوم من سياستها تلقى العراقيل فيها والعراقيب
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم جيش يدك من الشام الأهاضيبا

ويخاطب عبد الحميد العريسى وحقى العظم زعيمى الإصلاحيين قائلاً:

قل للعريس والأبناء شائعـــة والصحف تروى لنا عنه الأعاجيبا
علام تعقد فى باريز مؤتمـــراً ماكنت فيه برأى القوم مندوبا
وهل معمر «حقى العظم» فعلته لماضى خبراً «للطان»(*) مكذوباً
إذ راح يستنجد الإفرنج منتصفاً كأنه جمـــل يستنجـــد الزبيـا

ثم يهتف منادياً الأمة كلها يحذرها من تهور مصلحيها :

من مبلغ القوم أن المصلحين لهـــم أمسوا كمن لبس الجلباب مقلوبـــاً
كانوا أحق البرايا مطلباً ففـــــدوا من أبطل الناس فى الدنيا مطاليبا
راموا انشقاق العصا بالشغب ملتهباً والحقد مضطرماً والضغن مشبوبـــاً

وبمعنى يحذر فى ذلك الزمن المبكر سنة ١٩٠٩ مما تخبئه غيوم الفتنة وراءها من نيران مستعرة مدمرة تؤججها الأحقاد والضغائن توشك أن تأتى على وحدة المسلمين فتجعلها أثر بعد عين :

إنى لأبصر فى بيروت قائبة للشر موشكة أن تخرج القوبا
أو أكرة«ديناميت» إذا انفجرت فنارها تنسف الشبان والشيبا
وقد رأيت أناساً واصلين بها وهم بباريز ملباروه أنبوبـــا
وآخرين بمصر يطلبون لهـــا تفرقعاً يجعل المعمور مضروبا
ويترك الناس فى دهياء مظلمة يرتد فيها بياض الشمس حلبوباً

واستثارت هذه القصيدة الصريحة فى نقدها غضب الإصلاحيين وهجوهم العنيف ضده فرد عليهم بقصيدة أخرى تتضمن هجاء مقدماً يذكر إسفاف بعض الألفاظ فيها والصور بأهاجى جرير ودعبل وابن الرومى . صـ٤٠٦

(*) المقصود بالطان: جريدة التايمز البريطانية .

قل للألى نطقوا بالضاد مدغمة لم يدغم الضاد أباء لكم فرطوا
فيكم غلو وتقصير وبينهما ضاع المراد أأنتم أمة وسط
إنى ابتليت بقوم يبعرون على أعقابهم وإذا عنفتهم ثلطوا

ويستمر فى الهجو اللاذع والسباب الفج الذى يدل على عنف غضبه وقوة حرصه على استمرار الارتباط بالدولة العثمانية الممثلة لوحدة المسلمين حتى تهدأ ثائرته ويصفو خاطره فيتساءل أين نخوة العرب وأين مكارمهم من أدعياء العروبة الذين يزعمون أنها تأصلت فى نفوسهم منذ أسلافهم القدامى وورثوها جيلاً بعد جيل فى إشارة بعبارة من أصبحوا عرباً» إلى المستعمرين المحدثين من الموازنة أو غيرهم من المنتفعين بالوقيعة بين العرب والترك :

قل للأعاريب قد هانت مكارمكم حتى ادعاها أناس كلهم نبط
برأت للعرب العرباء من فئة ينمون للعرب إلا أنهم سقط
أين المكارم إن هم أصبحوا عرباً فإنها فى طباع العرب تشترط
هم كالضفادع فاسمعهم إذا رطنوا فما هنالك إلا اللغو واللغط

اكتشافه المبكر للإشكالية القومية...

ولقد كان الرصافى من أول المتنبهين إلى حديقة فكرة القومية وإنها لم تكن سوى شرك يراد به فصم أواصر الصلة بين جناحى الدولة العثمانية وقلبها فعندما يكتب شكرى غانم مقالاً يزعم فيه أن أهل الشام من سوريين ولبنانيين ليسوا عرباً بل هم فينيقيون ينطقون باللسان العربى يرد عليه شاعرنا بقصيدة يسميها «صبح الأمانى» ويكشف فيها عن أن دعاة القومية طيلة القرن الماضى وأوائل القرن الحالى من غير المسلمين لم يكن لهم هدف سوى إحداث الفتنة

واجتذاب المسلمين إلى شق عصا الطاعة على الحكم العثمانى وما أن تم لهم ما أرادوا حتى بدأوا يتنكرون للعروبة لساناً وتاريخاً ورابطة جامعة لأقطار الشرق العربى وأسرعوا ينعقون بدعاوى العصبية الإقليمية المفرقة لأبناء الأمة الواحدة فهى فى الشام فينيقية وفى العراق آشورية وفى مصر فرعونية وفى المغرب بربرية إلى آخره .

ويبدأ القصيدة بداية حذرة حزينة متشائمة فالأحداث تنبئ بأنه عاجلاً أو آجلاً ستنفك عرى الدولة العثمانية ويستقل العرب عنها ويرمز لذلك بالصبح إن عد الارتباط بها عند بعض الناس ليلاً ولكنه صبح كئيب غريب يتوجس الشاعر من خيفة إذ تكتنفه الزرقاء «السماء» فيه حمرة الدم ويبدو وجهها كوجه غادة جميلة إلا أنها معرضة فى تقطيب وجهامة أو كوجه فتى منهوك القوى يشتكى ويتوجه فلا يدرى كيف يتفاءل بهذا الصبح ومن أين يرى فيه مايدعوه إلى الاستبشار .

تبلج أفق الشرق من بعد ماأغبرا وكشر عن صبح الأمانى مفترا
ولو كان صبحاً ناصع اللون سرنى وبرد حراً كان فى كبدر الحرى
ولكنه صبح يلوح لناظرى بحاشية الزرقاء كالدم محمرا
أراه كوجه الغادة الخود راقنى بحسن ولكن قد تجهم وازدرا
لمحت تباشير المنى من خلاله صئلاً كمنهوك غداً يشتكى الضرا
فلم أدرى استبهمت أخيراته أأطمع أم أستشعر اليأس مضطرا
ولو كنت أدرى ماوراء احمراره لسرى عن النفس الكئيبة ماسرى
ولكنه ورى عواقب أمره فزادت شكوك النفس من أجل ماورى
يهامسنى بالوعد قولاً معجماً كأن هو يخشى أن أنيع له سرا
وإنى لأخشى أن أكون بوعده وإن أسفرت أوضاحه الغر مفترا

وبعد هذه الصورة التمهيدية الرائعة ينتقل الشاعر من الرمز البعيد إلى التلميح القريب فيلتمس فى رقة من خليليه أن ينصتا إلى مايفضى به من مخاوف نفسه وشجونها :

خليلى هل من عاذر فى قصيدة أقول بها حقاً وإن قلته مرا
أوى هبوة سواء فى الجو أسلبت حجاباً بآفاق العراقين متـرا
وأرخت بأرض الشام منها على الربى سدولاً بها جو السماء قد أخبرا
وماهى إلا عارض من تناكر به مربع الآمال أقفر وأقورا

وهكذا تتصاعد حدة التوتر صورة بعد أخرى فالصبح الكئيب فى المقطع الأول يمتلئ جوه بالغيوم الكثيفة والريح العاصفة منذرة بالخطر الشديد والعذاب الداهم. غير أن الشاعر لم يحدد مصادر قلقه وتوتره إلا بعد تلك المقدمة الطويلة البالغة ثمانية عشر بيتاً والمشحونة بأمثال تلك الصور القاتمة وبعد ذلك يصرح بشكواه قائلاً:

عجبت لقوم أصبحوا ينكروننا وقد عرفونا فى الزمان الذى مرا
هم أسمعونا نغمة عربية فدوى صداها فى المسامع مضطرا
فكم من قطب قام فيها مثرثرا فطرى لنا من يابس القول ماطرى
وكم شاعر قد أرخص الشعر دونها وكم قلمفوق الطروس بها صرا
وكنا أجبناهم إليها إجابة بها قد تركنا جانذ الدين غرورا
رجاء اتحاد فى طريق سياسته نعم مراميها بنى يعرب طرا
فمنذ حان أن يخضل غصن اعتزازنا ويرجع بعد اليبس رطباً ويخضرا
نصباً خياشيم الرجاء لريحهم فهبت لنا نكب دعايته صرا

فى هذه الأبيات تزدحم عواطف الرصافى مضطرمة باللوعة والأسى فهو بين استنكار لحال أولئك الذين نصبوا أحبوله القومية

لينسفوا بها أواصر القربى التى تربط أبناء الأمة الواحدة وبين تعجب من حال قومه الذين مايزالون يتقبلون الوقوع فى شرك تلك الأحبولة فـزعـتين مـسـتـسـلمين بل أننا لنحس فى الأبيـات نبـرة تأسف وندم وشعور بالذنب لبيع العرب الدينى بالدنيوى إذ يخاصمون العثمانيين جرياً وراء مصالح دنيوية فيتركون بإجابتهم دعاة القومية جانب الدين مزوراً على حد تعبيره وأخيراً يشير الشاعر إلى صاحب المقال المذكور:

لعمرى لقد ساء الكرام ابن غانم ببباريس إذ قد قال مايخجل الحرا
تضىّ عن مناميه العروبة وادعى جزافاً وخلى منهج القوم وابتـرا
وهل حسبوا أن العروبة فى الورى من العر حتى أنكروا ذلك العـرا
كأن لم يقم من بينهم ناعر بهـا ولم يكن أغرانا بها أمس من أغرا
فما أحد منهم وفـى بعهـوده ولاأحد منهم بما قال قد بـــرا

ومـهـمـا يكن من شئ فـإن من يـسـتـمع أو يقرأ هذه القـصـيـدة والقصيدتين السابقتين يخيل إليه أن الرصافى كان المتحدث الرسمى باسم السلطان العثمانى وأنه لم يكن شاعر العرب المصور لبوسهم وألمهم فى مطلع القـرن الماضى والمعـبـر عن تشـوفـهم إلى الإصـلاح والنهضة فى مختلف مرافق الحياة والذى عانى بسبب موقفه الإيجابى وعاش معظم سنوات حياته مشرداً منفياً بل نظم القصائد الكثيرة فى هجاء آل عثمان وليست قصيدة آل السلطنة إلا نموذجاً واحداً من ذلك الشعر الذى يجعله فى مقدمة الشعراء المجاهدين بشعرهم الثائرين فى وجه فساد الحكام وظلمهم وطغيانهم .

* **تداعيات عاطفية مشتركة تؤكد الاتجاه :**

ومن الضرورى أن نسجل له هنا هذا الموقف المشرف تجاه الدولة العثمانية لنؤكد ماتضح ياستقراء دواوين الشعراء المحافظين من أن تفكك الدولة الإسلامية الواحدة وتحولها من الدينية إلى العلمانية لم يكن بالأمر الهين الذى مر على وجدان الأمة وشعرائها مرور الكرام ويتأكد وقوف الرصافى إلى جانب مبدأ وحدة المسلمين من خلال عدة مواقف تسجلها قصائد ديوانه نشير إلى بعضها تاركين البعض الآخر للقارئ يطالعه بمراجعة الديوان. ومن تلك المواقف المشرقة مجموعة القصائد التى نظمها تنديداً بالعدوان الإيطالى على طرابلس سنة ١٩١٢ وتحية لبسالة الستوسيين الليبيين فى نصبهم للغزاة المعتدين وتحريضها لشباب الأمة على مؤازرتهم بإعلان الجهاد المقدس فى مواجهة الأوربيين المستعمرين .

وكما انتقد الشعراء المصريون السلطانيين المراكشين عبد العزيز وعبد الحفيظ لإسرافهما واستعانتهما بفرنسا ضد الحركة المغربية إنتقد الرصافى الطبقة الأرستقراطية المصرية الحاكمة فى قصيدة «عدس مصر» ص١٤٧ التى قالها حين «أقيم حفل ساهر كبير بمناسبة اقتران كريمة وجيه مصرى بابن الدأماء فريد باشا وكان ذلك فى أثناء حرب البلقان المعلومة هذه الحادثة قد أثارت الشعراء المصريين أيضاً وأنطقتهم بنقد مشابه يعتذر إلى مشاعر المسلمين ويدافع عن وحدتهم الروحية العميقة .

وحين تندلع حرائق الحرب العظمى سنة ١٩١٤ ينشد الرصافى فى قصيدة حماسية ملتهبة يبشر العثمانيين فيها بالنصر ويندد

بالأوربيين الطامعين فى الشرق المتغطرسين بقوتهم ويدعو شعوب المسلمين للوقوف إلى جانب الدولة العثمانية ضد المستعمرين الخلفاء.

ياقوم إن العدا قد هاجموا الوطنا
فأنضوا الصوارم وأحمو الأهل والسكنا
واستنفروا لعدو الله كل فتـــى
ممن ناء فـى أقاصـى أرضكـم ودن
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة
من يسكن البـدو والأريـاف والمدنـا
لاعذر للمسلمين اليوم إن وهنـوا
فى هوسـة ذل فيها كل من وهنـا
ولاحياة لهم من بعد أن جبنـوا
كـلا وأى حيـاة للـذى جبنـا
عار على المسلمين اليوم أنهـم
لم ينقـذوا مصر أو لم ينقذوا عدنـا

وكانت مصر وعدن إذا ذاك محميتين بريطانيتين وحين تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن وتنسحب القوات العثمانية من العراق فتدخلها قوات الحلفاء ينشد شاعرنا قصيدة شجية على لسان نهر دجلة يتأسف على ماآلت إليه الأحداث المأساوية من هزيمة العثمانيين وسقوط بلاده فى أيدى المستعمرين فيقول فى «نواح دجلة» ص٤١٨:

هى عينى ودمعهـا نضـاح كـل حزن لمائهـا يمتـاح
كيف لاأذرف الدموع وعـزى بيد الذلهـا للأمحتـاح

قدر مشنى يد الزمان بخطب جلل ماالليله بل صباح
حيث غمت على سماتى ظلمات تخفى بها الأشباح
وتوارى عن أعينى مضمحلاً شرف فى مواطنى وضاح
يوم أمسيت لاحماة تزود الضيم عنى ولأطبى ورماح
فأنا اليوم كالسفينة تجرى لاشراع لها ولاملاح
ضقت ذرعاً بمحنتى فتراءت قيد شبر لى الفجاج الفساح

وفى أواخر القصيدة يعاود الشاعر الاستنجاد بالجيش العثمانى ويعاتب برقة على انسحابه السريع من أرض الرافدين ويذكره بأمجاده السابقة ويبلغه شوق أهل العراق إلى عهده وأصلهم فى قوته للخلاص من ربقة الاحتلال البغيض :

أين أهل الحفاظ هل تركونى نهبة فى العدو وراحوا
برحوا وادى السلام عجالاً أفجد براحهم أم فراح
مالهم يبعدون عنى أنتزاحاً وعزيز منهم على انتزاح
أو مايعلمون أن حريمى للمعادين بعدهم مستباح
فلئن يبعدوا فإن فؤادى لإليهم بوده طمام
تركونى من الفراق أقاسى ألما ماتطيقه الأزراح
لو رأونى سبياً بأيدى الأغادى لبكوا مثلما بكينا وناحوا
لامسائى بعد البعاد مساء يوم بانوا والصياح صياح
أنا باقا على الوفاء وإن كا نت بقلبي ممن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو بلغيهم شكايتى ياراح

إن هذه القصيدة المفعمة بالشجن من خلال رويها المميز بالحاء المضمومة من أثر تتابع صورها وألفاظها المختارة بعناية لتشع إيحاء

بالحزن العميق والتأثر البالغ لتؤكد عمق مشاعر الرصافى تجاه الدولة التى إنهارت أمام عينيه وقد كانت - كما يراها . ترفع لواء الإسلام وتجمع صفوف المسلمين وتنسق جهودهم الحثيثة فى سبيل النهضة والارتقاء. ومن هنا لايدهشنا بعد ذلك أن نراه متمسكاً بارتباطه بالقوم حتى بعد سقوط الدولة العثمانية وقيام الجمهورية التركية الحديثة إذ يظل يلاحق الأحداث بشعره البالغ القلق والإشفاق والرغبة فى استعادة شعوب المسلمين موقع ا لصدارة الجدير بهم فى ركب الحضارة الإنسانية كما كانوا من قبل عبر مختلف العصور. فينظم قصيدة شجية أخرى بمناسبة سقوط أدرنة فى أيدى البلفاز خلال الحرب البلفانية العثمانية فيذكر بقصيدة شوقى الشهيرة فى الموضوع نفسه ياأخت أندلس عليك سلام. كما ذكرنا موقفه فى «نواح دجلة» السابقة بموقف مصطفى كامل فى بداية القرن حيث كان يستنجد بالعثمانيين ويدعوهم إلى الدفاع عن مصر والسعى إلى استعادتها ثم ينظم قصيدة جزلة تهزج بانتصارات الكمانيين على اليونان بعد الحرب العظمى سنة ١٩٢٢ يهنئ فيها الجيش التركى وقيادته ويبشرهم بنهضة تعيد ذكريات أمجادهم التالدة السالفة إذ يمتدح زعيمهم ويدعوه سمى المصطفى وفيها يقول :

سمى المصطفى لازدت تعلو إلى أوج يطاول كل أوج
فدر كالشمس فى فلك المعالى وحل من الكمال بكل برج
نصرت على بنى اليونان نصراً أقام الغرب فى هرج ومرج
وأطلع فى سراء الشرق شمساً تفيض عليه أنوار الترجى
فسر المخلصين وكل حر وساء الخائنين وكل سمج

هذه القصيدة الطروب المنشية بأخبار النصر المترقبة للمزيد منها تذكرنا بيائية شوقى التى نظمها فى المناسبة نفسها وجعلها معارضة البائية أبى تمام الشهيرة فى فتح عمورية :

الله أكبر كم فى النص من أدب ياخالد الترك جده خالد العرب

ومثلما لقب الرصافى فى «الغازى» بلقب «سمى المصطفى» جعله شوقى «خالد الترك» وشبهه بالبطل العربى العظيم خالد بن الوليد مما يبين لنا أن الشعراء المحافظين فى بداية القرن الحالى كانوا على اختلاف أقطارهم يتنعمون جواً إجتماعياً واحداً ويعبرون عن تجربة إنسانية متشابهة .

روافد إسلامية وعربية :

إن انتماء الرصافي القوى الذى رأينا إلى الدولة العثمانية ماهو إلا جزء من انتمائه الأكثر شمولاً إلى الإسلام وإن من الظواهر البارزة فى شعره حرصه على إبراز مبادئ الإسلام وتعاليمه وتاريخه فى الصورة الإيجابية المشرقة الداعية إلى أن يفتخر به بنوه وأن يستمدوا منه الطاقة الحافزة على النهوض والتطور ويتكرر فى أكثر من مناسبة دفاعه عن الدين الحنيف ضد هجمات أعدائه وشبهات خصومه ومن ذلك قصيدة «يقولون» وفيها يناقش دعاوى المقاتلين بأثر الإسلام السلبى فى تخلف أتباعه وتأخرهم :

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه يصد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذاقنا فكيف تقدمت أوائله فى عهدها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله فماذا على الإسلام من جهل مسلم

ثم يمضى فى تقرير حقيقة دعوة الإسلام إلى العلم والتعليم وإلى الحرية والمساواة والتأكيد على أن هذه القيم كانت الأسباب الكامنة وراء نجاح المسلمين الأولين والدعائم الراسخة للحضارة الإسلامية العرقية التى شهدتها العصور الغابرة وإن تخلف المسلمين المحدثين وتأخرهم الظاهر عن ركب الحضارة المعاصرة لامرد له إلا إهمالهم لأوامر دينهم ومبادئه السامية وتعلقهم بالمظاهر والقشور وأفتراؤهم الأهواء والمبتدعات :

لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلى بصائر أقوام عن المجد نوم
فأشرق نور العلم من حجراته على وجه عصر بالجهالة مظلم
وأطلق أذهان الورى من قيودها فطارت بأفكارت على المجد حوم
وفك دسار القوم حتى تحفزوا نهوضاً إلى العلياء من كل مجثم
وعما قليل طبق الأرض حكمهم بأسرع من رفع اليدين إلى الفم

ويمضى فى الاستشهاد بالتاريخ على فضل المسلمين فى نقل العلوم والحضارة إلى أمم الأرض ثم ينتقل إلى الإشادة بقيمة المساواة التى قررها الدين الحنيف بين أتباعه :

وماترك الإسلام للمرء ميزة على مثله ممن لآدم ينتمى
فليس لمثر نقصه حق معدم ولاعربى بخسه فضل أعجم
ولافخر للإنسان إلا بسعيه ولافضل إلا بالتقى والتكرم

ثم ينتقل إلى تفسير المصطلحات الدينية بما يبرز أثرها الاجتماعى ويتفق مع متطلبات النهضة والتطور :

وليس التقى فى الدين مقصورة على صـلاة مصل أو عى صو صيـم
ولكنها ترك القبيـح وفعـل مـا يؤدى من الحسنى نيـل مغنـم
فتقوى الفتى مسعاه فى طلب العلى وماخصت التقوى بترك المحـرم
فهل مثل هذا الأمر يالأولى النهـى يكون عثاراً فى طريق التقـدم

وهذا التفسير الحضارى للمصطلح الدينى يقرب مفهوم الرصافى للإسلام من مدرسة الإمام محمد عبده والسيد جمال الدين ويشير إلى الاتجاه العام الذى سارت فيه حركات الإصلاح الدينى فى مقتبل العصر الحديث ويزيد الرصافى قرباً من مذهب صاحبى «العروة الوثقى» صياغة أفكاره الدينية المجددة فى صورة محاجة كلامية عالية النبرة يشكل خصوم الإسلام أحد طرفيها المتقابلين .

أما قصيدته فى حفلة الميلاد النبوى فقد اتخذها الرصافى مجالاً للنقد الذاتى. بعد مقدمة طويلة امتدح فيها النبى الكريم (صلى الله عليـه وسلم) ونوه بخلقـه العظيم وأشار إلى القيم الإنسانية النبيلة التى كانت سبباً فى الانتشار السريع للإسلام وفى خلود حضارته انتقل إلى الشكوى من حال المسلمين المعاصرين :

غير أنا عن نهجها اليوم صرنا واستحلنا وكل حـال تحـول
حيث عدنا وفى النهوض قعود ورجعنا وفي الصعود نـزول
واختلفنا في الدين حتى افترقنـا فرقاً لايستسيغها المعقـول
والتزمنا الفروع منه فضاعت بالتزام الفروع منه الأصـول
كل حزب بمـا لديـه فخـور ولمن هم مخالفـوه خـذول
بدع فى حياتنـا منكـرات غضب الله فوقها مسـدول
لو رآنا والشـر فينـا كثيـر مستفيق والخير نزر قليـل

نعبد اللـه والعبـــادة لحـــن عند بعض وعند بعض عويـــل
ولحج القبور كالبيـــت حجـــاً يكثر المسح فيه والتقبيـــل
ونزجى إلى القبـــور نـــذوراً فضحايا مسوقة وحمولـــة
قال مستنكراً لما نحن فيـــه مابهذا قد جاءنى جبريـــل
كل من قال منكم إن هـــذا هو دين الإسلام فهو جهـــول

وهكذا تتعدد أدواء المسلمين بين تفرقهم فى الدين إلى أحزاب وشيع متعادية وتعلقهم بالفروع التى هى وسائل وإهمالهم للأصول التى تمثل جوهر الدين وروحه وتمسكهم بالبدع المفتراه كشد الرحال إلى أشرحة الأولياء والتبرك بها والنذر لها وسوق الذبائح والضحايا إلى ساحتها مما أبعدهم عن حقيقة دينهم. فالذى يزعم بعد كل هذه التغييرات أن مايفعلونه هو من صميم الإسلام فقد ادعى باطلاً ان هذا الأسلوب القائم على تتبع العلل الاجتماعية والكشف عن البدع الشعبية المتعلقة زوراً بالدين لهو شديد الشبه بأسلوب الإمام وتلميذه رشيد رضا «فى المنار» التى شهد الرصافى بداية ظهورها عندما كان مقيماً بالقاهرة أواسط العقد الأول من القرن الحالى .

ولاتنتهى القصدة قبل أن يشيع صاحبها فى نفوس سامعيها نسائم الأمل فى التخلص السريع من تلك العيوب القبيحة ويعود إلى التأكيد على قيمة الإخاء والاتحاد والتعاون ويؤكد التفسير الاجتماعى للدين الذى يجعل الكفر مقصوراً على عجز المسلمين وخمولهم وتقصيرهم فى اللحاق بركب الحضارة الإنسانية المتقدمة .

لست منكم بيائس بل نهـــوض منكـــم بعد فترة مأمـــول
فاجمعوا الشمل ناهضين فإن الـ كفر فى الدين عجزكم والخمول

ولايقتصر التفسير الاجتماعى للمبادئ الإسلامية على هاتين القصيدتين ففى قصيدة «إلى العمال» يربط بين الإسلام والاشتراكيه ويستشهد بالصحابى الجليل أبى ذر الغفارى في دعوته إلى انصاف فقراء المسلمين ومحاربة مظاهر البذخ التى ظهر فيها أغنياؤهم وأمراؤهم ويقتبس الحكمة الإسلامية بأن قيمة المرء مرهونة بحسب مايتقن من عمل وليست محدده بمقدار مايمتلك من مال .

إنما الحق مذهب الاشتراكية ... فيما يختص فى الأموال
مذهب قد نحى إليه أبو ذر ... قديماً فى غابر الأجيال
ليس فضل الزكاة فى الشرع إلا ... طوه نحو متنفاه العالى
ليس للمرء أن يعيش بلا كد ... وإن كان من عظام الرجال
كل مجد يبنى على غير سعى ... فهو مجد مهدد بالزوال
ليس قدر الفتى من العيش إلا ... قدر انتاج سعيه المتوالى

ومع إحساس الرصافى العميق بالانتماء الدينى فإن حماسته للإسلام حماسة رجل الدولة الذى يقدر مايمكن أن تجر الحماسة على أصحابها من مشكلات مع مخالفيهم فى العقيدة - ولذلك نجده فى أكثر من قصيدة يؤكد على أن وحدة أبناء المجتمع أو لادولة لايؤثر فيها اختلافهم فى الدين أو المذهب انظر فى ذلك على سبيل المثال قصيدة «فى سبيل الوطن» وفيها دعوة حارة إلى وحدة أبناء الوطن من مسلمين ومسيحيين، وقصيدة «أم اليتيم» وفيها رثاء لشاب ضحية الفتنة الطائفية وفى قصيدة «ماهكذا» ص٤٠٢ يزداد حرصه على الوحدة الوطنية حتى تتماس أفكاره مع دعوة القائلين بعلمانية الدولة. فهو يسائل دعاة الإصلاح ماذا يضرهم لو سعوا إلى جمع أبناء الشرق تحت راية دولة واحدة لاتفرق بين أبنائها دياناتهم

المختلفة ثم يعلق بأن عيب الشرقيين يكمن فى ولوعهم بالتعصب وشغفهم بالصراعات المستمرة فى أمور الدين .

ماضرهم لو نحو فى الأمر جامعة تنفى الكنائس عنها والمحاربا
لكنهم أمة تأبى مشاربهم إلا التعصب للأديان مشروبا
قد حاولوا الحق واستطوا بمطالبه حتى بدا وجهه كالليل غربيبا

ويتأكد هذا التماس مع مبدأ علمانية الدولة فى قصيدة «أيها المشنوق» ص٥٣١ على أن روح التحرر الفكرى والتسامح الدينى التى اتسم بها الرصافى وحرص على إبرازها محافظة على وحدة أبناء الأمة لاتحول دون إعلانه المتكرر لاعتزازه بانتمائه إلى عقيدته وفخره بها مبادئ وقيماً وتاريخاً وحضارة وقد رأينا طرفاً من ذلك فى أكثر من قصيده. وفى المقابل نراه ينتبه إلى مظاهر التعصب عند الغربيين فيسجلها عليهم منداً بها وهى تصدر كما يقول من دعاة المدنية وفى عصر التسامح والتحرر ونبذ التعصب - انظر قصيدة «مظاهر التعصب فى عصر المدينة ص٤٣١»، وكان الجنرال غورو - وهو أحد قادة جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى قد ألقى فى بيروت خطاباً يتباهى فيه بأمجاد قومه ويذكر المسلمين بالحروب الصليبية معتبراً اجتياح الحلفاء لبلاد العرب الحلقة المتممة لسلسلة الحملات الصليبية التى رمت أوربا بها الشرق طيلة مائتى عام من العصور الوسطى ولم تتوقف قبل أن تتصدى لها الدولة العثمانية الناهضة فى ذلك الحين .

فنظم الرصافى هذه القصيدة يرد عليه بأن ذكره للحروب الصليبية قد نكأ فى قلوب المسلمين جراحاً قديمة غائرة. ولو كان

المسلمـيـون هم المتـحـدثين بمثل حـديث الچنرال لانهـمـرت عليـهم الاتهامات بالتعصب والجاهلية والهمجية فى عصر الحضارة والعلم. وفي معرض دفاع الشاعر عن المسلمين يذكر الچنرال بدورهم المشئوم فى معاونة الحلفاء ضد الدولة العثمانية أثناء الحرب انخداعاً منهم بوعود هؤلاء بالحرية والاستقلال وقيام الدولة العربية الكبرى. ويعود الرصافى فى نهاية القصيدة إلى ماأشرنا إليه فى قصيدة «صبح الأمانى» من التأسف والندم والشعور بالذنب إذ ينتهى هنا أيضاً إلى أن مايرى المسلمون فى الشرق فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من غطرسة الحلفاء الأوربيين وتنكرهم لوعودهم وتآمرهم على تقسيم أقطار العرب وانتهابها هو النتيجة الحتمية لبيعهم الدين بالدنيا حين ظاهروا بريطانيا وفرنسا على العثمانيين، ويخاطب الچنرال بأن المسلمين الذين يقبلون الذل الآن ليسوا الذين واجهوا الصليبيين قديماً ولكنهم هؤلاء بتعبير الشاعر «إبن الدنا» أبناء دنيا يبيعون أنفسهم ثمناً لعرض منها حقر يمنيهم به أعداؤهم : -

ولو أن عهد المسلمين كعهدهم قديماً لحالت دون ذا النصر أهوال
ولكنهم باعوا الديانة بالدنا فحالت لعمرى منهم اليوم أحوال
لذلك قام ابن «الدنا» عن دناءة يحابيك فيما فيه للقوم إذلال
ولاتحسبنه مخلصاً فى مقاله ولكنه فى مكسب المال محتال

ثم ينصرف الشاعر عن مخاطب الچنرال المجسد للواقع المقيت الماثل أمامه إلى الانطواء على الذات والتعزى بالذكريات فى مناجاة خليليه ليساعداه فى البكاء على قبر صلاح الدين بكاء اليتامى على رفات أمهم والحلم بأن ينصدع القبر ليخرج منه البطل العظيم فيحيل الإنكسار انتصاراً ويجعل الهزيمة الذليلة عزاً مظفراً ومايمنعه أن يتعلق

بهذا الحلم المستحيل وقد اغتيل قلب العلى، وأمسى حمى الإسلام مباحاً ترتع فيه جحافل الأعداء :

خليلى قوما بى نطأطئ رؤسنـــا لدى جدث تعنوا لمن ضم أجيـــال
لدى الجدث الفرد الذى فيه قد ثوى من الملك الفرد ابن أيوب رئبـــال
فنبكى على الأوطان حول رجامــه كما قد بكت من فقدها الأم أطفـال
ونستنزف الدمع الغزير لتربـــــه كما استنزفت بمع المحبين أطـلال
حنانيك ياقبرا ابن أيوب فانصدع لينهض ثاو فى مطاويك مفضـال
إليك صلاح الدين نشكو مصيبـة أصيب بها قلب العلى فهو مفتال
وأمسى حمى الإسلام تنساب روضه فترعاه من سرح المعادين آبـــال

وإلى جانب انتمائه الإسلامى يبرز فى ديوانه بوضوح إنتماء قوى واعتزاز عميق بالعروبة بوصفها فكرة موحدة لشعوب العرب وتاريخاً مشرفاً يحرضهم على الاحتذاء، ومستقبلاً واعداً بالمآثر والأمجاد ونبذ أسباب التخلف والانحطاط .

ويستخفه التغنى كلما صدمت أذنيه صيحات التتريك والعصبية التورانيه التى ابتليت بها لدولة العثمانية فى أيامها الأخيرة على أيدى حزب الاتحاديين بما تنطوى عليه من استعلاء على العرب وتهوين لشأنهم، أو كلما استفزه الحلفاء الغربيون بدعاويهم الاستعمارية الطافحة كبراً وغطرسة وقلباً لحقائق التاريخ كما فى قصائده فى سبيل الوطن «ص١٣١»، الأمة العربية «ص١٣٩»، جالينوس العرب «ص٣٥٩»، إلى الأمة العربية «ص٣٩٤»، فى معرض السيف «ص٣٩٩» الحق والقوة «ص٤٥٣»، دمشق تندب أهلها «ص٤٥٢» فى طرابلس «ص٤٨٢» الوطن والجهاد «ص٤٨٩».

وبالإضافة إلى ذلك تعدد مدائحه ومطارحاته الشعرية التى خاطب بها لفيفاً من مشاهير أدباء عصره من غير العراقيين من أمثال «زكى مبارك» - وأمين نخله - ومحمد على كورد - والسكاكينى - والنشاشيبى وهما من فضلاء الفلسطينيين وسركيس وغيرهم، واشترك فى تكريم شوقى وفى تأبينه وخص أمين الريحانى بثلاث قصائد وشغلته أزمة طه حسين وعلى عبد الرازق سنة ١٩٢٥م التى أعقبت صدور كتابيهما «فى الشعر الجاهلى» ، «الإسلام وأصول الحكم» مما يكشف عن تجذر علاقاته بالمثقفين العرب والأدباء منهم على وجه الخصوص ويؤكد عدم اعترافه بالحدود المصطنعة التى عزلت مابين الأقطار العربية .

مرحلة الجهاد الوطنى فى عهد الانتداب الإنجليزى :

وبنهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م تبدأ صفحة جديدة ومشرقة من صفحات نضال شاعرنا الكبير - فبانتهاء الحرب تكون الجيوش العثمانية قد انسحبت من الشام ثم من العراق وحلت محلها جيوش الحلفاء الإنجليز والفرنسيين.

ووجدت بلاد الهلال الخصيب نفسها متورطة فى نظام الانتداب الذى فرضته الدولتان المنتصرتان وأقرته دول العالم الغربى جميعها ومن هنا فرض الجهاد مرة أخرى نفسه على الوطنيين العرب. وبدأت سلسلة جديدة من حلقات الكفاح المسلح ضد المعتدين الأوربيين أسهم فيها الرصافى بشعره الحماسى الملتهب واضطر بسببها إلى النزوح ثانياً عن دياره مرغماً مقهوراً .

ويضم الديوان عدداً كبيراً من القصائد التى تسجل له بحروف مضيئة صوراً من جهاده المقدس ضد سلطة الانتداب الإنجليزية وضد الحكومات العراقية المتعاقبة التى رآها الشاعر فى تلك الفترة مواليه للسلطة الأجنبية أو مهادنة للمحتل الباغى البغيض ومتعاونة معه. ومراجعة قصائد مثل «غادة الانتداب» ص٤٤٩، الحرية فى سياسة المستعمرين «ص٤٨٨»، كيف نحن فى العراق «ص٤٦٠»، حكومة الانتداب «ص٤٦١»، يوم الفلوجه «ص٤٦٦»، الانكليز فى سياستهم الاستعمارية «ص٤٦٣» - تبين مقدار خلاص الشاعر وجرأته وعنفه فى مواجهة السلطة الغاشمة - يقول على سبيل المثال فى قصيدة «حكومة الانتداب»: -

أنا بالحكومة والسياسة أعرف ألام في تفنيدها وأعنف
سأقول فيها ماأقول ولم أخف من أن يقولوا شاعر متطرف
هذى حكومتنا وكل شموخها كذب وكل صنيعها متكلف
غشت مظاهرها وموه وجهها فجميع مافيها بهارج زيف

ويصف حال العراقيين فى ظل نظام يسيطر عليه الإنجليز ويفرضون عليه جنود إمبراطوريتهم من مختلف الجنسيات وموظفيها وخبراءها قهراً واستبداداً بصورة تترك المواطنين غرباء فى بلادهم وتعطى الأجانب من الحرية فى التنقل ومن المناصب الإدارية والمراكز الإقتصادية الحساسة مايغبطهم عليه أبناء الشعب الأعزل العاجز عن حماية نفسه أو الدفاع عن حقوقه الطبيعية :

تجوز سيادة الهندى فينا وأما ابن البلاد فلا يسود
إذن فالهند أشرف من بلادى وأشرف من بنى قومى الهنود
فكم عند الحكومة من رجال تراهم سادة وهم العبيد

طلاب للأجانب هم ولكـــن على أبناء جلدتهم أســـود
متى شفق القوى على ضعيفنا وكيف يعاهد الخرفان سيـد
ولكن نحن فى يدهم أســارى وماكتبوه من عهد قيـــود
أما والله لو كنا قـــروداً لما رضيت قرابتنا القـــرود

ويصور الحرية المزعومة التى يدعى الإنجليز أن نظام الانتداب كفلها للمواطنين العراقيين تصويراً ساخراً متهكماً:

ياقـــوم لاتتلكمـــوا إن الكـــلام محـــرم
نامـــوا ولاتستيقظـــوا مافاز إلا النـــوم
وتأخروا عن كل مـــا يقضى بأن تتقدمـــوا
ودعوا التفهم جانبـــاً فالخير ألا تفهمـــوا
وتشبتوا فى جهلكـــم فالشر أن تتعلمـــوا
أما السياسة فاتركـــوا أبداً وإلا تندمـــوا
وإذا أفضتم في المبـــاح من الحديث فجمجمـــوا
والعـــدل لاتتوسمـــوا والظلم لاتتجهمـــوا
من شاء منكم أن يعيش اليوم وهو مكـــرم
فليمـــس لاسمـــع ولابصر لديه ولافـــم

وباشتداد ضغط الحركة الوطنية على سلطة الانتداب تضطر الحكومة البريطانية إلى إلغائه وإعلان إستقلال العراق ولكنه يبقى إستقلالاً مشروطاً تظل فيه الحكومة العراقية مقيدة بالارتباط ببريطانيا فى شئون كثيرة عسكرية وسياسية واقتصادية فلا يقنع هذا القدر المحدود من الاستقلال جموح الوطنيين فيستأنفون كفاحهم ضد الأجنبى الدخيل والحكومات المرتبطة به ويشترك الرصافى أيضاً فى

هذا الكفاح فينظم قصائد مثل «الوزارة المذنبة» و«بين الانتداب» و«الاستقلال وبنى وطنى» وغيرها يصور فى إحداها الحكومة المستعدة للتعاون مع الإنجليز والقبول بهذا الاستقلال المزيد فى صورة المرأة البغى المثقلة بالزينة والأصباغ على حين خبث مخبرها وساءت حقيقتها ويسميها «غادة الانتداب» على أن الجهاد داخل العراق لم يشغل الرصافى عن تتبع الحركات الوطنية النشطة فى الوقت نفسه خارجه وخصوصاً فى بلاد الشام المجاورة التى يعدها الشاعر إمتداداً لبلاده وجزءاً لايتجزأ من وطنه العربى الكبير فحين استوقفه حرس الحدود على مشارف سوريه لسؤاله عن جواز سفره انزعج انزعاجاً شديداً إذ لم يعتد الشعور بغربته فى بلاد العرب أو بحاجته إلى جواز مرور بين العواصم العربية التى كانت إلى عهد قريب مجتمعة فى ظل راية واحدة وسجل هذا الانزعاج فى قصدة «فى طريقى إلى حلب» ص٤٦٠ وعندما تآمر الموالون للانتداب الفرنسى فى بلاد الشام على المجاهد الوطنى ياسين باشا الهاشمى ليوقعوا به ويعتقلوه فى سجن الرملة نظام الرصافى قصيدة يشجعه بها ويدين أعداءه وينكر قبح صنيعهم وينظم قصيدة يخاطب فيها الرئيس الأمريكى ولسون صاحب المبادئ المشهورة التى أعلنها أواخر الحرب الكبرى يعد فيها جميع الشعوب بالحرية والمساواة والاستقلال التام. فيذكره بوعوده ويسأله عن موقع العرب من هذه الدعاوى الخلابة، ويهاجمه هجوماً شديداً لنسسيانه تلك العهود الخادعة وإقراره لبغى المستعمرين على الشعوب الضعيفة : ص٤٣٣ :

قال قولاً به استحق إحتراماً وتعدها فاستحق ملاما
رجل قد تنكب الحق قوساً ومن البطل ظل يرمى سهاما
كان منه المقال نوراً فلما حان حين الفعال كان ظلاما

ويفيض فى تصوير مأساة مدينة أزمير التركية التى أعمل فيها اليونان سيوف الحقد الهمجى ونكلوا بأهلها تنكيلاً يندى له جبين الإنسانية ويكشف كذب أدعياء الحضارة والتسامح وفى النهاية يتجه بالخطاب إلى المسلمين فيصارحهم بأن الغربيين سيظلون يرون كل فضائلهم مثالب وكل حسناتهم سيئات ولن يعترفوا لهم بأدنى حق من الحقوق التى تنشدق أوربا بالدفاع عنها ماداموا منتسبين إلى الإسلام ص٤٣٥ .

أيها المسلمون لستم من الغرب بحال تستوجبون احتراماً
فإذا مالأتم الأرض عدلاً عد جوراً أو مفخراً عد ذاما
وإذا مافعلتم الخير يوماً حسبوه جناية وأثاما
وإذا ماافترى عليكم عدو أيدوه وصدقوا الأوهاما
وإذا ماجن عليكم أناس سكتوا عنهم ومروا كراما
رحم الله أمة أصبح الغرب يرى كل ذنبها إلا سلاما

ويعرض لصورة أخرى من صور الكوارث الكثيرة التى منى بها المسلمون فى العصر الحديث تحت ظل دعاوى الحضارة والتسامح الغربيين فيشير إلى المجازر التى تعرض لها مسلموا البلقان على أيدى الصرب فيذكرنا بما روع البوسنة فى الأمس القريب ويجعلنا نقول ما أشبه الليلة بالبارحة ويؤكد فى نفوسنا الإحساس بالتعصب المقيت الذى تكن نفوس الغربيين ضد المسلمين .

ويزيف مايتغنون به من شعارات معسولة جوفاء عن الإنسانية والتسامح والحقوق المدنية والحرية الفردية ونبذ التعصب الدينى وجعله تهمة يرمون بها فى وجود المسلمين وماهو إلا ضغينة حمقاء تختبئ فى قلوبهم :

كم بأرض البقلان منكم قتيـــل وأيامى مضاعـة ويتامـــى
نثر الظالمون فى الأرض منهـــم جثثاً تملأ الفضاء وهامـــا
لو أتينا تلك البلاد رأينا اليوم مكنهم جماجماً وعظامـــاً
مانضا للدفاع عنهم بنو الغرب حساماً ولاحاروا كلامـــاً
إن تكن هذه السياسة عـــدلاً فإلى الظلم نشتكى الآلامـا

ونعود إلى التذكير مرة أخرى بأن الشاعر يصور هنا أحداثاً وقعت سنة ١٩٢١ وليس ١٩٩٢ فيـــا للدهشـــة! وياللأسف! وحين تعرضت الشام للعدوان الفرنسى وحاصرت قواته دمشق وبيروت وانهالت عليها قذائف مدافعه ودباباته واستبسل أبناء سورية ولبنان فى الدفاع عن وطنهم وسقط منهم مئات الشهداء فى ميدان البطولة والشرف سجل الرصافى هذه الوقائق فى ديوانه منددأ بالعدوان ومشيداً بآيات المجد والفخار التى سطرها المجاهدون السوريون بدمائهم ويتخذ شعره فى هذا الموضوع موقفاً إيجابياً محرضاً العرب على مؤازرة الشام فى محنتها ففى قصيدة «دمشق تندب أهله» ص٤٥٢ يصور تعاطف أبناء العراق ومصر مع العاصمة السورية ثم يدعوهم إلى أن تصبح مشاعرهم سلوكاً عملياً وألا يكتفوا بالنوايا الطيبة فيقول على لسان عاصمة الأمويين :

أين أباة الضيم من آل يعـرب ألم يأت منهم ناصر ومعيـــن

ثم يجيب :

فقلت لها لبيك يـــاأم إنهـــم سيأتيـك منهم بارز وكميـــن
سندرك فيك الثأر من أنفس العدا ونوقد نار الحرب وهـى زبـــون
فهذى دمشق ياكرام وهـــذه أحاديث عنها كلهن شجـــون

وإيماناً منه بعموم قضايا النضال فى سبيل الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية وتفاعل بعضها مع البعض الآخر مهما تباعدت المسافات بينها نجده يولى بعض الشئون الدولية إهتماماً يجعله يعلق عليها بشعره فهذه قصيدة «يوم سنغافورة» ص٤٧١ ينظمها بمناسبة العدوان الأجنبى على الجزيرة الآمنة وتلك قصيدة «الفيل والجمل» ص٤٥١ ينظمها بمناسبة لقاؤهما بالزعيم الهندى المسلم محمد على جناح مؤسس دولة الباكستان وفيها يحرض أبناء الهند على النضال ضد بريطانيا لنيل استقلالهم ويشبه الهند فى ضخامتها وقوتها وخضوعها للمستعمر بالفيل المقيد المسخر للخدمة ويحث الزعيم الهندى على إشعال نار الكفاح ضد الإنجليزكى يستطيع الحمل الذى يشبه العراق به أن يقتدى به ويتبعه فى ثورته ضد الذئب الغادر .

* التوجهات الاجتماعية :

ومثلما كان الرصافى سائراً على نهج جمهرة الشعراء المحافظين فى ولائهم للدولة العثمانية والنظر إليها بوصفها جامعة المسلمين ولواء وحدتهم وفى مكافحة النفوذ الأجنبى وشحن الجماهير الشعبية ضده نجده يتبع خطى المحافظين أيضاً فى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية واتخاذ مظهر داعية الإصلاح الاجتماعى والحرص على التشهير بالعيوب المتفشية بين أبناء المجتمع وتتبعها ومحاربتها والإلحاح على الدعوة إلى التخلص منها .

وقد رأينا أن حسه الاجتماعى المرهف وإنحيازه الواضح إلى الطبقات الكادحة وحرصه على أن ينقل شكواها ورنينها من خلال شعره كان سبباً مباشراً فى احتسابه من قبل السلطة العثمانية شاباً

متمرداً ثم فى الزج به إلى غياهب السجون وفى طرده خارج بلاده فى نهاية الأمر. ولم يشن ذلك التعنت عزمه عن مواصلة تبنى القضايا الاجتماعية وجعل شعره منبراً عالى الصوت ومعرضاً منفسح المجال لهموم مجتمعه وشجونه .

وإذا كانت مشكلة الفقر هى شغله الشاغل فى المرحلة المبكرة من حياته الشعرية التى سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى فإن قضايا التعليم والمرأة ومستقبل الأمة العربية أصبحت تشكل الجانب الأكبر من همومه الاجتماعية فى المرحلة التالية وبمراجعة قصائد مثل «الفقر والسقام، و«بنى الأرض»، و«الدهر» يرى صوراً متنوعة من المراجع الاجتماعية التى أقضت مضجعه وأوحت إليه بالتفنن فى تشكيلها فى صور نابضة بالحياة وإن كانت طافحة بالأسى وإذا قرأنا أيضاً قصائد «اليتيم فى العيد» ، و«المطلقة»، و«الحياة الاجتماعية والتعاون»، و«العادات قاهرات» وسواها تأكد لدينا إحساس الرصافى القوى بالمسئولية الاجتماعية شأن جميع الشعراء المحافظين من أبناء جيله .

ويتحمس كحافظ للدعوة إلى الاهتمام بالمدارس ودور العلم وإنشاء المزيد منها وحسن توجيهها وإدارتها وتشجيع أبنائها على التفوق العلمى إذ يرى ذلك أول الطريق إلى النهضة والتقدم والحضارة لذلك تكثر المناسبات التى يدعى فيها إلى الحفلات المدرسية فيستجيب بنظم قصائد مثل «إلى أبناء المدارس» ص٥٢، و«فى المعهد العلمى» ص٧٤، وفى «منتدى التهذيب» ص٧٦ و«فى المدرسة» ص٨٥ ويشارك في مراقبة إدارة التعليم ومناهجه والتعليق

عليها تعليقاً انتقادياً فى «المدارس ونهجها» ص٨٧، و«العلم والإجازة فيه» ص٨٨، و«العلم» ص٩٠ و«الحمد للمعلم» ص١٤٦، و«إلى المتعلم» ص١٥٧، فى «مكتبة الأوقاف» ص٢٤٢، و«تأثير التربية» ص٢٦٤ وعلى الجملة فإن مجموعة تعليماته أو قصائده المتعلقة بموضوع الدعوى إلى نشر التعليم تكاد تفوق أى مجموعة أخرى سياسية أو اجتماعية فى ديوانه الكبير، ومن الطريف أن نلاحظ تعدد أوجه الموافقة بينه وبين شاعر النيل ومن ذلك أن نجده يبدى اهتماماً فائقاً بدور رعاية الأيتام والمشردين ويحرص على المساهمة بالتبرع فى تأسيسها وينظم فى ذلك قصائد متعددة تأخذ طابعاً قصصياً مثل «إلى حماة الأطفال» ص٢٦٨، و«دار تربية الطفل» ص١٦٨، «الحياة الاجتماعية والتعاون» ص٧٢ و«الفقر والسقام» ص٩٤ .

وامتداداً لوقفة الرصافى الإنسانية المؤازرة لمختلف الشرائح الضعيفة فى المجتمع يتخذ موقفه المناصر لقضية المرأة شكل الظاهرة البارزة التى جعلت المعنيين بترتيب ديوانه يفردون فيه باباً خاصاً تحت عنوان «النسائيات» قوامه ثمانى قصائد لاتتضمن شيئاً كثيراً ولاقليلاً من الغزل أو النسيب والتشبيت بل تنخرط جميعاً فى التحريض على الإرتفاع بمستوى المرأة من خلال تعليمها وإنصاف وضعها الأسرى وتصور مشاهد فاجعة من حياة المرأة الشرقية. فيما بين نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى وتطالب بضمان حقوق النساء فى حرية الزواج وفى الحياة المستقرة الآمنة وتقابل بين وضع المرأة فى زمان الشاعر وبين الحقوق الإنسانية التى منحها لها الإسلام وتنعى إساءة فهم المسلمين لدينهم ومن خلال عنوانات هذه القصائد

تتضح موضوعاتها وموقف الشاعر منها وهى على النحو التالى «المرأة فى الشرق»، و«نساؤنا» و«حرية الزواج عندنا، و«المرأة المسلمة» و«التربية والأمهات» و«هوان المرأة عندنا»... إلى آخره وخارج نطاق هذا الباب تظهره المرأة بطلة الكثير من قصائده الاجتماعية فى قصيدة «الأرملة المرصفة» تعانى المرأة ألوان من الشقاء بحثاً عن كسرة خبز تقيم بها أود ولدها وتفعل الشئ نفسه فى «اليتيم فى العيد» إنقاذاً لحياة شقيقها المريض. ويروى الرصافى أنه استوحى أمثال هذه القصص من مشاهداته فى واقع الحياة «فقد سئل لماذا نظمت هذه القصيدة؟ قال: خرجت لصديق لى بائع تبغ أمام جامع الحيدرخانة ليلة عيد الأضحى وبينما كنت جالساً فى حانوته أشارت إليه إمرأة متحجبة بدا فقرها من عباءتها أن ينزل فتهامسا وانصرفت فسألت صديقى عن خطبها فقال إنها أرملة تعول يتيمين وجاءت بصحن لترهنه لقاء أربعة قروش لأنهما جائعان فلحقت بها مسرعاً وسلمت لها اثنى عشر قرشاً وهى جميع ماأملكه فأخذت المبلغ بتردد وخوف ثم ناولتنى الصحن قائلة: «الله يرضى عنك خذ الصحن فرفضت ذلك وعدت إلى بيتى والدمع ينهمر من عينى راسماً للبشرية المعذبة صورة حقيقية من صور «اليتيم فى العيد».

وتكشف قصيدة «المطلقة» من ثقافة فقهية جيدة يتمتع بها الرصافى ومحاولة مخلصة للتوفيق بين الأحكام الشرعية والأحوال الاجتماعية إلى جانب خيال قصب يدل عليه الأسلوب القصصى للقصيدة فبعد تصويره لإنفصام عرى الزوجية من عدة زوايا بطريقة تكشف عن مأسالوية الموقف الاجتماعى للمرأة إذا تعرضت لمثل تلك الحادثة خصوصاً حين ينصب عليها بلاء الطلاق بصورة عفوية وبلا

سبب معقول وبمجرد يمين معلقة إنزلق إليها لسان الزوج عفواً وهو يتجادل مع نظرائه فى السوق أو يعابث أصحابه فى المقهى فتجد المرأة نفسها دون سابق إنذار مطرودة من بيتها وملقاة إلى عرض الطريق كريشة فى مهب الريح، وفى نهاية القصيدة يشير الشاعر إلى فقه ابن القيم وشيخه ابن تيمية فى هذه المسألة ص٥٧ .

ألاقل فى الطلاق لموقعيه ... بما فى الشرع ليس له وجوب
غلوتم فى ديانتك غلواً ... يضيق ببعضه الشرح الرحيب
أراد الله تيسيراً وأنتم ... من التعسير عندكم ضروب
وقد حلت بأمتكم كروب ... لكم فيهن لالهم الذنوب
وهى حبل الزواج ورق حتى ... يكاد إذا نفخت به يذوب
يمزقه من الأفواه نفث ... ويقطعه من السم الهبوب
فدى ألبن القيم الفقهاء كم قد ... دعاهم للصواب فلم يجيبوا
ففى إعلانه للناس رشد ... ومزدجر لمن هو مستريب
نحا فيما أتاه طريق علم ... نحاها شيخه الحبر الأريب
وبين حكم دين الله لكن ... من الغالين لم تعه القلوب

ومن الموضوعات التى شغلت الرصافى وأقلقته مستقبل الأمة العربية وماستسفر عنه أعقاب الثلاثينيات من هذا القرن تلك المرحلة المثقلة بمخاض النهضة الإجتماعية والاقتصادية وبأعباء الكفاح السياسى والجهاد فى سبيل حل القضية الوطنية ويظهر اهتمامه بهذا الموضوع فى صورة التطلع إلى مايضمره الغد المرتقب من خلال استقراء معطيات الحاضر المنظور. ويتجلى هذا بوضوح فى قصيدة نحن والحالة العالمية ص٤٧٤ التى نظمها سنة ١٩٣٨ قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية يلفت فيها الأنظار إلى الإرهاصات المنذرة

بالحرب ويتنسم ملامح المستقبل من خلال أفق الغيب فيرى صورة انقلاب تاريخى عظيم تصبح مهمة الشعوب الضعيفة المستعبدة أمماً قوية تتمتع بالحرية والكرامة والسلام ثم بحث العرب على الاستعداد لهذا الغد المأمول بالسعى المخلص فى سبيل تقريبه ويذكرهم بمضمون كلمة التوحيد التى هى أساس عقيدتهم وماتقتضيه من اتحاد بينهم واستشعار للعزة وإباء للضيم والخذلان أمام المستعمرين ص٤٧٤ .

صاح إن الخطوب فى غليان فبماذا يجيئنا الملـــــوان
جل رب الأنام فى كل يوم هو من كبريائه فى شـــان

* * * * * * * * * *

إننى بمصر تباشير صبـــح مستفيض على ظلام الآنـى

إننى أستشف من غير الدهر انقبالاً يعم كل مكان:

سيلوح الدانى به وهو قاص ويلوح القاصى به وهو دان
ويكون المعز غير معـــز ويكون المهان غير مهـــان

وسيغدو الضعيف محترم الحق ويمسى الظلوم فى خسران

وعندئذ :

يتجلى رب السمـوات والأر ض علينا بعدله والعنـــان
فيبوء «المستعمرون» بخسـر وتضئ البلاد بالعمـــران

ثم يتوجه إلى العرب فيسألهم أين يكونون إذا أقبل عليهم هذا الغد المنتظر ويذكرهم بخداع المستعمرين لهم أبان الحرب العالمية الأولى وبأنهم لم يحصلوا بعد الحرب إلا على استقلال مزيف مقيد بمعاهدات تضمن مصالح أعدائهم وتعرقل حريتهم وانطلاقهم ويذكرهم بتاريخ المجيد أيام كانوا أعزة في بلادهم ويشير متعجباً إلى قيم

الإسلام بمفهومه الحضارى العميق الذى يأبى قبولهم لما هم عليه من ضعف واستكانة وفرقة :

ويك إن الإسلام أوجد فينا وحدة مثل وحدة الرحمن
فأعتصمنا منها بحبل وثيق هو حبل الإفاء والإيمان

ليس معنى توحيدنا الله في الملة إلا اتحادنا فى الكيان.

فلهذا نعم! لهذا! لهذا نحن دنا بوحدة الريان
وحدة لايفلها المتوالى من صروف الدهور والأزمان
وحدة جاءنا من الله فيها مرسل بالكتاب والفرقان
وهدانا بها إله قديم واحد، عنده القرون ثوانى
مانرى سلطة علينا لخلق غير سلكان خالق الأكوان

إن مايميز شعر الرصافى رغبته المستمرة في استشراف حجب الغيب مشرئباً يتطلع إلى المستقبل المجهول فى تفاؤل واستبشار، وإن من أهم المجالات التى تجود فيها قريحته نقده الاجتماعى للمثالب الخلقية التى قعدت بأبناء الشعب عن السعى فى درج الحضارة الحديثة واستخدامه للبرهان التاريخى يشع به روح التفاؤل ويملأ النفوس حمية واقعة نحو اليقظة والنهوض واستفادته من المصطلح الدينى بمايبعثه من مفاهيم إيجابية محرضة على التمسك بالمثل الإنسانية العالية والسعى فى سبيل تحقيقها .

وفى باب استشراف حجب الغيب والتبشير بغد مأمول تقترب فيه من التحقق كل القيم الإنسانية النبيلة التى طالما راودت خواطر البشرية وأحلامها تأتى قصيدة« أبو دلامة والمستقبل» ص٣٧٦،

وبطل القصيدة شاعر عباسى ممن كان الخلفاء يستطيبون صحبتهم لفكاهتهم المرحة وعبثهم الخفيف. وكان أن أمره المنصور يوماً بالخروج من جيش له فى مهمة عسكرية لتأديب بعض المتمردين - فلما التقى الجمعان أمر روح بن خالد قائد الجيش أبا دلامة بمبارزة أحد فرسان الخصوم وبعد طول مراجعة وتردد واستعطاف وجد الشاعر نفسه مضطراً إلى مواجهة لم يشك فى أنها ستفضى به إلى حتفه. فما كان منه إلا أن أخذ يحدث خصمه بما يزهده فى النزال ويقنعه بعدم جدوى المقاتلة حتى إذا بلغ منه ماأراد رجع إلى قائده مبتسماً وهو يقول: «لقد كفيتم مؤنة هذا البطل، فاكفونى من دونه. إن أحداً لن يستفيد من القتال - فى رأى الرصافى - إلا الساسة والقادة ولذلك مضى يشن حملة شعواء على الحروب ويبالغ فى تصوير ماتؤدى إليه من ويلات وكوارث .

وعلى ماتتضمنه القصة التاريخية المأثورة من جوانب فكاهية فى سردها وحوارها وبالرغم مما توحى به من معان قد لاتتناسب، كثيراً مع مقتضيات الموقف العربى المعاصر فى الوقت الراهن. فإن الرصافى استغل شخصية الشاعر القديم المشهور ليلقى الضوء على موقفه الكاره للحروب النافر مما تخلفه وراءها من تخريب ودمار وضحايا وماتدل عليه من استحكام روح العداء بين البشر وتحجر قلوبهم وعجز عقولهم عن تمثل معنى الأخوة وعن القدرة على التفاهم والتعايش وحل مشكلاتهم بالطرق السليمة. وفى هذه القصيدة يتوقع الشاعر أن نموذج أبى دلامة لن ينظر إليه فى المستقبل بوصفه الشاعر الجبان الرعديد الذى ترتعد فرائصه لذكر الحرب وإنما سيكون هو النموذج السائد بين الناس من جميع الأمم وسيصبح رمزاً من رموز التفاهم

والتعاون بين الخلق ونبذ الأطماع والأحقاد والرغبة فى تقاسم أسباب الحياة بنزاهة ووداعة وتعفف. وعلى كلّ فإن أبا دلامة لم يخرج فى القصيدة لحرب تحرير أو استرجاع حق مغتصب :

إن الهواتف لاتزال بمسمع ... منى تقول إذا شكوت الحالا
لاتيأسن فللزمان تنفس ... فارقبه إن يتبدل الأبدالا
والدهر طاه سوف ينضج أهله ... بالحادثات يزيدها إشعالا
إن الدهور وهن أمهر سابك ... سترد أضداد الورى اشكالا
حتى كإنى بالطباع تبدلت ... غير الطباع وزلزلت زلزالا
وكأننى ببنى الملاحم أصبحوا ... لأبي دلامة كلهم أمثالا

إن الرصافى يراهن فى هذه الأبيات على المستقبل ولكنه يستعجل الأحداث. ويرى أن استحكام تأزمها وبلوغها المدى الذى لامزيد عليه هو السبيل إلى الحل والانفراج والانقلابات التاريخية الكبيرة ربما على طريقة القول المأثور «ضيقى ياأزمة تنفرجى» وربما تأثراً بالأفكار الفلسفية والاجتماعية التى كانت منتشرة على أقلام وألسنة المفكرين والمصلحين الغربيين فى ذلك الحين والتى لابد أنها بلغت أسماعه وراودت خاطره .

وبالنظر إلى كون هذه الأحلام المستقبلية سابقة لأوانها وأنها ربما تعطى إيحاءات لاتتناسب مع طبيعة الظرف التاريخى الحرج الذى تمر به الأمة العربية حالياً لانجد هذه التجربة التى تمثلها قصيدة «أبو دلامة والمستقبل» تتكرر فى ديوانه .

الإنعكاسات الأدبية :

وفى الفترة المتبقية من دراستها هذه نتناول الانعكاسات الأدبية لظاهرة الانتماء الإسلامى والعربى التى برزت قوية طيلة رحلتنا مع ديوان الرصافى. ومن المعروف إن فكرة الانتماء كانت الدافع وراء تمسك الشعراء المحافظين عموماً بتقاليد الشعر العربى القديم قالباً وأسلوباً واحتفاظهم بالكثير من مفرداته وصوره بحيث تركز مجال التجديد عندهم فى المضمون دون الشكل فبقيت القصيدة العمودية بكل خصائصها من تعدد أغراض واعتماد على وحدة البيت وصبت فى قالبها التقليدى مختلف الموضوعات المستحدثة التى فرضتها متغيرات الحياة فى العصر الحديث. فإلى أى مدى تنطبق هذه المقولة على تجربة الرصافى؟ وماحدود تأثير انتمائه على الخصائص الأدبية لشعره؟ ومامقدار القديم الدال على النزعة المحافظة عنده والجديد المنبعث من رغبته فى التجاوب مع طبيعة الحياة المعاصرة لنتاجه الشعرى ؟

لايعد الرصافى متمرداً على المستوى الفنى بقدر مايعد كذلك على المستويين السياسى والاجتماعى فإذا كان قد ثار ضد السلطتين العثمانية والإنجليزية وضد الحكومات الوطنية الموالية للأجانب وإذا كان قد شن هجوماً عنيفاً ضد المتزمتين فى الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى فإنه لم يخرج فى الشكل الفنى عن الانجازات التى أحرزها جمهرة أنداده من الشعراء المحافظين، فلا تمرد يحسب له فى هذا المجال إلا أن يكون على أصحاب العروض والبديع من شعراء القرن التاسع عشر الذين كان الشعر عندهم نظماً جامداً مثقلاً بالصنعة والزينة اللفظية المتكلفة. بل هو كأنداده من الشعراء

المحافظين من أبناء جيله لم ينج تماماً من أعراض وإن تكن طفيفة من شعر الصنعة والتكلف والبديع. ففى قصيد «اليتيم المخدوع» على سبيل المثال يرثى لغلام ذهب ضحية العبث والعربدة ويؤرخ لتلك الحادثة بحساب الجمل فى البيت الأخير من القصيدة على طريقة الشعراء العثمانيين .

ولما أن ثوى ناديت أرخ ثوى قتلاً بلا مهل «نعيم»

وكالعادة تأتى كلمة أرخ إشارة بدء لهذا الحساب الحرفى - فإذا أحصيت المدلولات الرقمية من الحروف الأولى فى كلمات الشطر الأخير بالبيت أنتجت العام الهجرى الذى وقعت فيه الحادثة .

وكشأن جيله من المحافظين جدد الرصافى فى موضوعات الشعر العربى وأغراضه بما جعلها تختلف فى المضمون اختلافاً بيناً عما كانت عليه فى العصور السابقة وإن ظلت فى الشكل تنسج على المنوال القديم نفسه الذى نسج عليه فحول الشعراء العرب فى عصور القوة والازدهار أولئك الذين اتخذهم الرصافى وجيله مثلاً يحتذى وأسوة يقتدى بها غير أنه إذا كان الشعراء العباسيون من أهل الصنعة الرقيقة والزينة المحسوبة بعناية لاتجعلها ثقيلة ولامتكلفة هم موضع المحاكاة والتقليد عند المحافظين المصريين فإن الشعراء الأكثر إقتراباً من الجاهلية والأقل تأثراً برقة العباسيين وسلاستهم كانوا هم المثل الأعلى عند الرصافى. فإذا كان شوقى متيماً بمسلم ابن الوليد والبحترى وابن زيدون والحصرى القيروانى والبهاء زهير وأضرابهم من المتأخيرن من شعراء الإيقاع الرنان والديباجة المشرقة والموسيقى المطربة فقد كان الرصافى ذا ميول بدوية ربما رغبة فى التميز أو قوة إحساس بالدماء العربية الجارية فى عروقه ونزوعاً ملحاً فى التمسك بها

والتعبير عنها ولذلك كثر فى فغته الغريب المهجور والحوشى من الألفاظ وكثر اختياره للقوافى العصية كالصاد والضاد والطاء والزاى وتكررت فى شعره مظاهر جرأته فى استعمال الصيغ غير المتداولة للمفردات وكثر اقتباسه من تعبيرات القدامى وتضمينه جملاً وأشطراً وأبياتاً من مأثورهم ففى قصيدة «السجن فى بغداد» ص٤٢ يقول :

وجوه عليها للشحوب ملامـــح تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وفى «أم اليتيم» ص٣٩ يقول:

وأصبح قلبى وهو كالشعر لم تدع له شعراء القوم من متـــردم

وفى قصيدة «معركة الحياة» يقول :

لعمرك ماهذى الحياة بملبـــس لمن حكيك من عجز نسيم شعاره
ولكن لمن أمسى بأيد وقـــوة يجر على الأيام فضـل إزاره

ويقول:

وماشرف الدر الثمين فريـــده إذا هو لم يبرح بطون محـــاره

ويقول أيضاً:

ومالناس إلا الماء يحبيه جريه ويرديـــه مكث دائم فى قراره

فنجده فى هذه الأبيات جميعاً يقتبس ويضمن ألفاظاً وصوراً وتراكيب من طرفة وعنترة، وزهير، والشافعى الطغرائى .

وتسرى فى بعض قصائده نفثات شعراء جاهليين وإسلاميين سرياناً يشمل القصيدة كلها يطابعه ويتجاوز جزئية الألفاظ والصور ويشعر القارئ بحضور قوى لهؤلاء الشعراء القدامى وتشرب عميق

من جهة الرصافى لشخصيتهم وروحهم كقصيدة «بعد النزوح» النونية التى تبدو معارضة لنونية (ذى الأصبع العدوانى) المشهورة من بحر البسيط .

وأما الشاعران القديمان العباسيان على وجه التحديد اللذان نوه بهما الرصافى بل أفردهما بقصيدتين مملوءتين ثناءاً وتمجيداً فهما «المعرى» و«المتنبى» وتأثره بهما واضح وضوح تأثرهما بالروح الجاهلية العربية الخالصة التى لم تلينها طراوة الحضارة العباسية أو أقل أنهما تعمدا قصداً أن يظهرا التمسك بهذه الجزالة البدوية الرصينة. فأما تأثره بأبى الطيب فيبدو فى الحرص على انتهاج الأسلوب البدوى والاعتزاز بالنفس والعروبة. مناوأة الحكام والشعور تجاههم بالندية. ولعل اعتذاره بالمتنبى. وإثارة بقصيدة مدح أخرى يرجع إلى كون الشاعر العربى الكبير قد أصبح فى العصر الحديث مزاً لإشفاق الشخصية العربية على ذاتها والتخوف من غلبة الأعاجم على بلاد العرب وتحكمهم فيهم وربما كان الرصافى من أوائل المثقفين العرب المحدثين الذين أحسوا فى المتنبى بهذه الروح القومية فجعلوه رمزاً لها. أما تأثره بأبى العلاء فنجده مضموناً فى تأملاته المتشائمة وفى تساؤلاته الفلسفية واستخلاصه الحكمة والإكثار منها ونجده شكلاً فى العناية بمتانة الأسلوب وقوة اللغة وتحرى الغريب واستقصاء حروف المعجم كلها تقريباً في قوافيه، فلا عجب بعد ذلك أن يسميه شاعر البشر وأن يخصه بقصيدة كاملة بوسعه فيها مدحاً وتمجيداً وأن يعارض داليته المشهورة من بحر الخفيف بقصيدة «نحن على منطاد» على أننا يجب ألا نتجاوز سريعاً مسألة تأثر الرصافى بأبى العلاء قبل أن نقف بشئ من التأنى أمام القصائد الثمانية التى بدأ الديوان

بهما مجموعة فى باب واحد تحت عنوان الكونيات، وهى «فى مشهد الكائنات»، «العالم شعر» «تجاه اللانهاية»، «من أين وإلى أين»، «نحن على منطاد»، «كلمة معتبر»، «ألكنى ياضياء»، «الأرض» وهذا العنوان مستحدث فى أغراض الشعر والبداية به تدل على رغبة واضحة فى لفت القارئ إلى محتوياته .

ولعل الشاعر عدها من أهم دلائل التجديد عنده. وربما حسبها هى ومجموعة القصائد الأخرى المضمومة داخل باب الفلسفيات علاقة على اتجاهه الفكرى المتميز ونزعته إلى التأمل وسبر أغوار الأشياء والأحداث.

وفى واقع الأمر أن المجموعتين كلتيهما متشبعتان بأجواء المعرى فى لزومياته. وموضوعات مجموعة الكونيات تتراوح بين التعليمى والتأملى فقصيدة «الأرض» على سبيل المثال لاتعدو أن تكون نظماً لمعلومات مقررة فلكية وجيولوچية على طريقة منظومات العلوم التى انتشرت فى العصور المتأخرة كألفية ابن مالك ورجبية المواريث وطيبة القراءات العشر إلى آخره، ونظم الرصافى قصيدة «الأرض» على شكل الموشح الذى يتكون كل بيت فيه بعد المطلع من خمسة أجزاء، الثلاثة الأول منها على قافية متجددة والاثنان الآخران يلزم أحدهما الميم المفتوحة والآخر الراء المكسورة كالمطلع على النحو التالى ص٢٧ :

خير فى الأرض أوحته السما لأولى العلم برسل الفكر
أن هذى الأرض كانت أولاً ماترى بحراً بها أو جبلاً
أو سهولاً أو ربا أو سبلاً أو رياضاً زهرها الغض نما
من سحاب جادها بالمسطر

إنما كانت كتلك الأخـــوات من نجوم سائـرات دائـرات
حول شمس هى إحدى النيرات كن من قبـل عليها سـد ما
كتلـة واحدة فى النظـــر

ويستمر الشاعر فى بسط نظرية السديم حول قصة نشأة الأرض وأخواتها فى المجموعة الشمسية مستطرداً إلى برودة سطح الأرض وبقاء جوفها ملتهباً ونشأة البحار والأنهار والحياة على ظهرها فى استرسال طريف وإذا كانت اللزوميات لاتضمن شعراً يأخذ شكل الموشحات فإنها تتضمن قدراً كبيراً من معلومات فلسفية وطبيعية منظومة فى قالب شعرى وهى من هذه الجهة لاتبعد كثيراً عن النظم التعليمى - ربما كانت طبيعة المرحلة التاريخية التى ظهرت قصيدة «الأرض» خلالها تتحمل هذا النوع من المنظومات التعليمية لندرة المتعلمين وشع المصادر العلمية وغياب هذه المعلومات العامة عن متناول جمهور الرصافى فى ذلك الحين. وأما القصائد السبع الآخر فهى تمعن فى تأمل مظاهر الكون المختلفة أغلبها صور طبيعية وبعضها لقطات اجتماعية تلمع خلالها المجازات الشعرية والصور الخيالية التى تقربها من الوصف التقليدى للطبيعة فى الشعر القديم وتتسلل إليها من حين إلى آخر الأفكار الرصينة التى يمتزج فيها حسن التعليل الخيالى الطريف بالحكمة المستخلصة من استكناه مظاهر الطبيعة ومحاولة اكتشاف سنن الكون وقوانين الوجود السارية على عناصر الطبيعة الجامدة وعلى حياة البشر المتحركة .

فى القصيدة الأولى «فى مشهد الكائنات» يقول مصوراً اضطراب سطح البحر وتدافع أمواجه المتصاعدة بينما يشرف عليه الشاعر من موضع عالى ذات ليلة مقمرة ص٣ :

وقفت ولألاء السنى يستخفنى فتطرب نفسى والكريم طروب
أردد بين البدر والبحر ناظرى فيصعد طرفى مرة ويصـــوب
تأملت فى حسن العوالم موهناً فجاش بصورى الشعر وهو نسيب
كأنى وعلوى العوالم عاشـــق أطل من الأعلى عليه حبيـــب
فقام له مستشرفاً ويمينـــــه تشد ضلوعاً تحتهن وجيـــب

ثم ينتقل إلى التأملات الاجتماعية إذ تبقى حياة البشر دائماً شغله الشاغل ص٤ .

ولما رأيت الكون فى الأصل واحد عجبت لأن الخلق فيه ضـــروب
ألا إن بطناً واحداً أنتج الورى كثيرين فى أخلاقهم لرحيـــب
وإن فضاء شاسعاً قد تضاربت بأبعاده أيدى القرى لرهيـــب
وإن إختلاف الآدميين سيـــدة وهم قد تساووا صورة لعجيب
وأعجب مافى الكائنات ابـن آدم فما غيره فى الكائنات مريب
يذم فعل السوء وهو حليفـــه ويحمد قول الصدق وهو كذوب

ويستمر فى تأملاته الانتقادية للحياة الإجتماعية ويمزج فى القصيدة الثانية فى «العالم شعر» أيضاً بين الصور الطبيعية والاجتماعية فى تأملات تبدى له تلك المظاهر المتباينة ضروباً متنوعة من الشعر. فصفحة الكون سطور نضيدة من غرر الأشعار ، وحادثات الدهر قصائد يرددها على آذان السامعين :

قرأت وماغير الطبيعة من سفر صحائف تحوى كل فن من الشعـــر
أرى غرراً لأشعار تبدو نضيـدة على صفحات الكون سطراً على سطر
وماحادثات الدهر إلا قصائـــد يفـــوه بها السامعين فم الدهر

فتلألؤ النجوم المتناثرة فى جوف القبة الزرقاء شعر من أحسن الشعر وتنفس الفجر الحالم بعد إنحسار الليل الحالك شعر من أبدع الشعر والسيد الكريم صاحب الفضائل والمآثر هو من أروع الشعر ومجلس السماء الهانئين بصحبتهم الرضية من أعجب الشعر إلى آخره .

وفى بعض قصائد هذه المجموعة يميل إلى تلوين تأملاته بألوان قاتمة تبديه فى مظهر الحائر المرتاب فى قيمة وجوده وفى غاية الحياة ومعناها ، وهنا تبلغ دروة التأثر باللزوميات. ويظهر ذلك بالتجديد فى «تجاه اللانهاية» ، و«من أين وإلى أين» ، وفى بعض فلسفياته مثل «ماوراء القبر» ، و«حقيقتى السليبة» ويستهوى بعض الباحثين تركيز الضوء على لحظات الضعف التى تسجلها هذه القصائد وتصويرها فى صورة الموقف الوجودى انبراء الكون الفسيح ، وواقع الأمر أن هذه الوقفات المختلجة بارتباك فكر الشاعر لم تنشأ عن غير التأملات الانتقادية فى حياة البشر اليومية البسيطة فليست سوى استطرادات وتداعيات غير مقصودة لذاتها وغير متأصلة فى أعماق تفكيره .

إذ لايتناسب الموقف الوجودى المزعوم بمكوناته من مشاعر الحيرة والقلق والوحدة والضياع واللاجدوى مع أحساس الرصافى الراسخ والمستمر بقيمة وجوده ورسالته القومية وإنتمائه العميق دينياً واجتماعياً وارتباطه الملتحم فى أصالة وإتساق ببيئته وأمته مما يجعل البون شاسعاً بينه وبين حالات الوحشية والضياع المرضية التى يستشعرها الوجوديون. وإذن فمن الصحيح القول بأن تساؤلاته فى

«من أين وإلى أين» ونحوها ليست سوى شطحات مصطنعة تعبر عن رغبة نزقة فى إثبات القدرة على التجديد الأدبى ونظم الشعر فى مختلف الموضوعات كما كان ينظم قدامى الشعراء فى الخمريات والغزل الصحيح والسقيم مجاراة لغيرهم وإثباتاً لبراعة التعبير فى كل الأغراض وإلا فكيف تتجاور «من أين وإلى أين» مع «العالم شعر» فمن أين للحائر المرتاب أن يرى العالم صوراً متنوعة للشعر لما توحى به وتستدعيه صفة الشعرية من نظام وإتساق وتناغم بين مختلف عناصر الوجود. ومن الصحيح أيضاً مايعلق به المرحوم الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى مقدمته الضافية للديوان على بعض ماجاء فى قصيدة «ماوراء القبر» من أنه «قول جرئ» كنا نتمنى لو جرد ديوانه منه وكما وجد مؤرخو الآداب العربية فى شعر «أبى نواس»، «المعرى، و«الخيام» مايدعو إلى هذا حسن الظن بهم فإنى كذلك وجدت فى شعر الرصافى مايثلج له القلب ويخفف من حدة العب من ذلك قوله فى تنزيه البارئ «عز وجل» :

وغاية مهدى إننى قد علمته حكيماً تعالى عن ركوب المظالم

وقوله :

لعمرك ماهذا فى الحياة وما الذى يراد بنا من الخير والشر ؟
على إننا نمضى إلى أمر ربنا كما أننا آتون من ذلك الأمر

وقوله :

إقرأ كتاب الكون تلق بمتنه آيات ربك فصلت تفصيلا
سبحان من جعل العوالم أنجما يسجهن عرضاً فى الأثير وطولا

وقولــه :

رمانى القوم بالإطار جهــلاً وقالوا عنده شك مريـــــب
فمن ذا منكم قد شق قلبـــى وهل كشفت لكم في الغيــوب
فعند الله لى معكم وقــوف إذا بلغت حناجرها القلــوب
يقينى شر فريتكم يقينـــى بأن الله مطلع رقيـــب»(*)

وأما تجديده فى الأغراض التقليدية الأخرى فنراه منتشراً فى مختلف الفنون الشعرية المتعارفة، فقد حرص بداية على حذف معظم القصائد المديح من ديوانه بحيث لم يبق منها إلا نماذج معدودة يمكن عدها من قبيل الإخوانيات، إذ هى موجهة إما إلى أصدقائه من الأدباء كالزهاوى، الجواهرى، الريحانى، وسواهم وإما إلى أصدقائه من الساسة مثل عبد الوهاب النائب، عبد المحسن السعدون الذى أنشد كثيراً فى مدحه حياً وفى رثائه بعد نهايته المأساوية. إذ كان يرى فيه رمزاً للاستقلال وأملاً فى تحقيق ما يتطلع إليه من تقدم وتطور .

وهو فى مدحه ورثائه كما هو فى فخره الشخصى والقومى يرسم صورة نموذجية للشخصية العربية المتكاملة فى صورتها المثلى ويقدم للشباب المثل المنشود والقدوة المرتجاة التى تملأ نفوسهم سمواً بالفضائل والمكارم .

(*) مقدمة الديوان صـ ى

وأما الهجاء فقد أحرز عنده وعند أبناء جيله تطوراً كبيراً فأصبح نقداً سياسياً أو اجتماعياً يعتنى بتصوير المثالب والعيوب النفسية والأخلاقية وابراز عواقبها وآثارها السلبية على الأفراد والجماعات دون تعمد التشهير بالأشخاص والتنقيب عن العورات الخفية التى كانت تحصر الهجاء فى نطاق شخصى ضيق كما كان فى صورته التقليدى القديمة .

وقد عنى الرصافى كأقرانه من المحافظين بوصف مستجدات العصر الحديث فوصف السدود والجسور فى بغداد وعلى البسفور فى الأستانة ووصف السفر فى السيارة والقطار، وملاهى المدن الكبيرة وملاعب كرة القدم فيها والبرق ونحوها مما استحدثته الحياة المدنية الحديثة كما وصف «محاسن الطبيعة» وغيرها من موضوعات الوصف التقليدية «الصيف» «الشتاء» «الغروب» «وقفة فى الروض» «قصر البحر» إلى آخره وظل وصفه فى كلا الأمرين واقفاً عند حد الحسى الملموس لايتعداه إلى المعنوى المتصل بتهويمات الشعور وسبحات العواطف والخيال فذلك التطور فى الوصف ظل محجوزاً- فيما يبدو - لأجيال الشعراء التالية من الوجدانيين سواء كانوا من جماعة الديوانيين أو المهجريين أو أبوللو أو الرمز بين المشارقة وقصارى الرصافى بوصفه شاعراً محافظاً فى هذا المجال أن يحشد فى الصورة الشعرية عناصر الشكل والتركيب واللون والحجم والحركة ملحقاً بعض المحسوسات ببعض فى صور بيانية طريفة باحثاً للظواهر الحسية عن علل وأسباب خياليه مستطرفة مستخرجاً من صورة الموصوف مغزى أو دلالة اجتماعية أو حكمة إنسانية، ولكنه لايحاول تلمس الأثر النفسى للمحسوس أو تداعى الإيحاءات

المتجاوبة متعه فى أعماق الشعور أو النفاد إلى دلالة الموصوف الجوهرية والتركيز عليها فى صورة نفسية صافية خالصة من شوائب المشابهات الحسية السطحية .

وإلى جانب حسية الوصف عند الرصافى نلحظ تقليدية الغزل وجموده فى نطاق ضيق من الوصف الحسى للمرأة بما يجتره من مفردات وجزئيات استهلكها الشعراء القدامى وعاد الرصافى كإخوانه إلى ترديدها واستعادتها فى تكرار ممل خال من الحيوية أو الصدق اللذين تفرضهما التجربة الحية. ويبقى الغزل واحداً من نقاط ضعف المحافظين المشتركة البارزة إذ يعتمدون فيه اعتماداً كلياً على محفوظهم من التراث .

وتتميز الكثير من قصائد ديوان الرصافى بتعدد أغراضها فيجتمع فيها الوصف والسياسة والحنين إلى الوطن والمدح فى أحيان كثيرة على الترتيب الذى ذكرناه أو على صور أخرى متباينة كثيرة غير أن هذا التعدد فى الأغراض لايدع القصيدة تستند فقط على اتفاق القوافى والأوزان فى تحقيق وحدتها الفنية وإنما يرجى الشاعر غالباً على تقارب الموضوعات المتعددة فى القصيدة الواحدة واستدعاء بعضها لبعض فى تيار شعورى متصل يسمح لأجزائها المتعددة بالتماسك والتضام ووحدة الشعور والجو النفسى المتسق - وحين يبدأ بوصف الطبيعة في تركيا أو ريف دمشق أو جبل لبنان ويرى فيها صوراً جميلة متتابعة ماتلبث أن تستثير حفظيته فتنطقه بالنقد السياسى حين تذكره بأحوال الفلاحين فى بلاده مثلاً. وقد لايكون ثم فرق بين ماأمامه من مظاهر الطبيعة وأحوال الناس وبين ماتركه وراءه فى وطنه فى الواقع ولكن عين الخيال والاحساس بالغربة

والرحلة والرغبة فى امتداح من يخاطب من أبناء البلاد التى يزورها تجعله يرى ذلك الفرق ويستثار به ويلهج بالشعر الثورى الغاضب .

فى قصيدة «محاسن الطبيعة» ص٢٥٩ يمتزج الوصف بالغزل بمدح خليل مطران بالدعوة إلى نهوض الشرق وترقيته كما تمتزج هذه المعانى ومايشبهها فى قصيدة «ذرى لبنان»، و«وتجاه الريحانى» و«ليلة فى دمشق» وغيرها وبذلك يكون الرصافى كأقرانه من المحافظين قد جمع بين تقاليد القصيدة العربية القديمة المبنية على تعدد الأغراض وبين متطلبات النقد الأدبى والذوق الثقافى العام فى العصر الحديث الذى ينشد دائماً الوحدة فى العمل الفنى، تلك الوحدة التى تبرزه فى شكل متميز وبناء محكم متماسك وتعصمه من التفكك والاضطراب .

وتتعدد أشكال القصائد فى ديوان الرصافى تعدداً يتيح لبعضها درجة من التمايز والتفرد ويفرض القول بأن شاعرنا قد حاول مثل أنداده تلمس خطواته على طريق التجديد فى شكل القصيدة التقليدية ولم يركن تماماً إلى الشكل العمودى الموروث متجاهلاً النداءات المتلاحقة إلى التجديد التى تتداولها الأقلام على صفحات الجرائد والمجلات فى تلك الفترة والتى شملت المجال الأدبى ضمن ماشملت من مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية سيما وأن هؤلاء الشعراء المحافظين قد تأثروا بالصيحات المطالبة بالتجديد العام وكانوا سبباً مباشراً فى انتشار تيار زاخر من المشاعر المتوترة الناشدة للتغيير إلى الأفضل وكانوا أبواقاً هاتفة بهذه الغاية المنشودة ومن ثم يكون من الصعب عليهم أن يضعوا فاصلاً بين التجديد فى ميادين الثقافة والتعليم والنظم الاجتماعية والإدارية

وبين المحافظة على التقاليد الأدبية المتوارثة خصوصاً وأن مايقترحون أو يجتهدون فى محاولة إضافته إلى القصيدة العربية من جهة الشكل يزيد فى فاعليتها وتأثيرها ويمكنها من استيعاب ماتحمله من مضامين إيجابية وأفكار إصلاحية بصورة قوية تثير الإعجاب .

ويمكننا أن نحصى ستة أشكال للقصيدة فى هذا الديوان فهناك القصيدة العمودية ذات الطابع بقافيتها العصية وبما تمتلئ به من غريب كقصيدة «تحوز الحرية» المبنية على حرف الزاى وفيها يقول فى لهجة عنيفة ونبرة عالية: - ص٣٨٩ .

قمنا على الملك الجبار نفرعه بالسيف منصلتا والرمح مهزوزا
حتى تركناه فى هيجاء معضلة ألفت ضراماً على الظاعنين مأزوزا
إنا لنأبى على الطاغى تهضمنا حتى نهوز فى الهيجاء تهويزا
ونأكل الموت دون العز نمضغه كمضغنا التمر برينا وسهريزا
لاعاش من لايخوض الموت مرتضياً بقاءه بعصى الذل موكوزاً

والمتأمل فى هذه الأبيات يجد فيها روح الحماسة العربية ويلاحظ أثر القافية فى تحديد مجرى الصور والأفكار ويتسمع فيها أصوات الشعراء الفرسان القدامى .

وفى مناسبات كثيرة حاول الرصافى إختراق الشكل العمودى للقصيدة التقليدية وأكثر ماكان ذلك فى وصفياته المتعلقة بعناصر الطبيعة تتغنى بجمالها وتتملى فى محاسنها وتنتشى بمباهجها. وبذلك تبدو القصيدة وكأنها أنشودة مغناه تفيض سلاسة ورقة.

أنظر فى ذلك «البلبل والوردة» و«أغرودة العندليب» و«الشتاء» و«يادار قطنطين» و«إلى جميع الغوانى» .

فى قصيدة «البلبل والوردة تتعدد القوافى ويقوم الشاعر بتقفية كل عروضين ضربين بقافية مستقلة .

إن بليلا من نسيج السحر لما جرى فى المربع المخمل
أخبر رياه أصبح الخبر عما جرى في الروض للبلبل
إذ هو قد ألقى به ناظرة من بعد ماثغر الصباح ابتسم
صادف فيه وردة زاهرة والطل كاللؤلؤ فيها انتظم

وفى هذه القصيدة يجتمع وصف الطبيعة مع الخيال القصصى الطريف فى هذا الشكل المزدوج فتكسبها هذه العناصر الفنية مزيداً من الطرافة والعذوبة .

ويستخدم الرصافى شكل الموشح فيقفى ثلاثة أشطر بقافية واحدة ثم يرجع فى الرابعة إلى قافية المطلع. ومن أمثلة هذا النمط قصائد «إيقاظ النيام» و«شاعر البشر» و«الفقر والسقام» وغيرهم.. ولاتتصل هذه القصائد بوصف الطبيعة مما يجعل الارتباط بين الغرض والشكل عنده غير ضرورى .

وهناك القصيدة القصصية ذات المغزى الاجتماعى التى تشبه قصائد حافظ والكاشف ومحرم فى تضمنها خيطاً قصصياً ناحلاً ينتهى إلى هدف واضح محدد ينص عليه الشاعر دائماً قبل البداية وبعد نهاية القصة ويوجه أحداثها وشخصياتها توجيهاً يساعد على إبراز ذلك الهدف . ومن الطريف أن يكون دائم الدعوة إلى محاسبة الفقر والجهل ونشر التعليم وتأسيس دور رعاية الأطفال وهو نفس الهدف الذى إعتنى به شعراؤنا المحافظون فى مصر فى قصائدهم القصصية. ويستخدم الرصافى أحياناً الأسلوب نفسه جاعلاً القصيدة

على لسان بطلها كما في «الفقر والسقام» مضيفاً إليه جعل القصيدة ذات مقاطع متعددة القوافى .

ويتكرر ورود القصيدة على لسان بطلها وإن كان نهراً فى قصيدة «نواح دجلة» أو بناء قديماً متهدماً كالمدرسة النظامية ببغداد فى قصيدة «أطلال العلم» متبعاً حافظ أيضاً فى هذا الأسلوب الذى اشتهرت فيه قصيدتا «مصر تتحدث عن نفسها» و«اللغة العربية تنعى حظها بين أبنائها» .

وأما القصيدة القصصية فلا تقف عنده على الموضوع الاجتماعى بل تتخطاه إلى استمداد العبرة من التاريخ من خلال تصوير إحدى لحظاته المأساوية الحاسمة فى حياة الدولة العباسية فى قصيدة «هولاكو والمستعصم» وأيضاً إلى استشراف الرؤيا المستقبلية الطوبوية المثالية فى «أبو دلامة المستقبل» .

وقد وصفنا ماتتضمنه هذه القصائد من عناصر قصصية بالخيط النحيل لما يتسم به من بساطة وسذاجة وتكشف سريع يعوزه إلى الإثارة والتشويق فى قصيدة «هولاكو والمستقيم» يبدأ بالعتب على الدهر لأنه : -

أدال من العرب الأعاجم بعدما أدال بنى عباسها من بنى حرب
ولم أر للأيام أشنع سبة لعمرك من ملك العلوج على العرب

وبعد أن يقرر فكرة تقلب الدهر يعرض مثالاً عليها وهو تحول ماكان عليه المستعصم الخليفة العباسى المعاصر لاجتياح التتار لبغداد من عز وسؤدد إلى ذل وهوان ويؤكد أن ذلك بسبب إكبابه على متعه وملاذه وانشغاله بها عن تصريف أمور الحكم التى تركها لوزيره

الخائن ابن العلقمى الذى أرسل إلى هولاكو سراً يشجعه على غزو دار الخلافة. ويستطرد الشاعر في سرد الأحداث مجسماً وقائعها المأساوية ومشيراً إلى الأثر السلبى لغفلة المسلمين عن مصالحهم الدنياوية ولتمكن الروح الفردية والنزوع إلى الفرقة والتباعد بينهم مما أوهن قوتهم وأدى بحضارتهم إلى التساقط والاضمحلال .

ومن التجارب الشكلية التى استحدثها جيل الرصافى من المحافظين وأسهم ديوانه فى تثبيتها فى التراث الأدبى للعصر الحديث المطولات الشعرية المتعلقة بسيرة أحد أبطال التاريخ العربى. ومثلما نظم حافظ المطولة العمرية ونظم محمد عبد المطلب المطولة العلوية نظم الرصافى مطولة فى سيرة أحد فرسان الحضارة الإسلامية البارزين وإن لم يكن هذه المرة شخصية سياسية من الصحابة الكرام وإنما كان شخصية علميه مشهوداً لها بالتفوق العبقرى فى مجال الطب وهو أبو بكر الرازى طبيب القرن الرابع الهجرى المشهور .

والقصيدة الطويلة التى تربو على مائة بيت تحمل عنوان «جالينوس العرب» تشبيهاً له بالطبيب اليونانى الشهير وتقوم على قافية واحدة وهى حرف اللام وتتعدد مقاطعها ويحمل كل مقطع فيها عنواناً جانبياً يشير إلى اختصاصه بمعالجة إحدى جزئيات الموضوع مثل (مولده - نشأته - سياحته - مآثره العلمية - أخلاقه - عودته إلى الرى). ومن تتابع العنوانات السابقة يتجلى اضطراب ترتيب جزئيات الموضوع فى القصيدة .

واختيار الرصافى لهذا الطبيب العربى لساناً وإن لم يكن عربى النسب يعكس فارق الموقع السياسى بينه وبين المحافظين المصريين،

فقد نظم حافظ وعبد المطلب مطوليتهما عن الصحابيين الجليلين أثناء الحرب العالمية الأولى تحت وطأة الحماية البريطانية المفروضة على مصر بأحكامها العسكرية التى ألجمت الألسنة وحجرت على حرية الأقلام وألهبت المشاعر الدينية فى نفوس الوطنيين المصريين فاضطر الشاعران للجوء إلى الشخصيات الإسلامية قناعاً ورمزاً يحتميان به من بطش المستعمر ويعبران من خلاله عن موقفهما تجاه الأزمة السياسية والاضطرابات التى غشيت سطح الأرض كلها مع الحرب الكبرى وآثارها المدمرة بينما نظم الرصافى مطولته المثبتة فى الجزء الأول من ديوانه وهو فى حالة توافق مع الدولة العثمانية لايعكر صفوه سوى مشكلة التخلف الحضارى وتفشى الآفات الاجتماعية الضارية التى تتطلب مواجهتها التخلص من عماية الجهل المنتشر فى المجتمع والأخذ بأسباب العلم الحديث الذى يمثل تراث الرازى أحد دعائمه الأساسية فى عصر النهضة وفى بداية العصر لاحديث حين كانت كتبه أهم المراجع فى علوم الطب والصيدلة فى كبرى الجامعات الأوربية .

وإلى جانب القصيدة القصصية استخدم الرصافى القالب الحوارى فى النادر القليل من قصائده الاجتماعية الميالة إلي التأمل والتفلسف واستعراض المشكلات العامة والدعوة إلى حلها بطريقة تختفى معها المباشرة شيئاً ما - وتقل هذه النبرة الوعظية الجافة. وهذا الأسلوب فى التعبير عريق في الشعر العربى استعان به الشعراء الجاهليون ومن بعدهم فى عرض أفكارهم المجردة وتقييد خواطرهم السانحة فحين يدير أبو ذؤيب الهذلى حواراً بينه وبين أميمه فى مطلع قصيدته العينية الشهيرة لايرى القارئ أن لهذا الحوار وظيفة أو

لشخصية أمية موقعاً فى القصيدة إلا أن تكون وسيلة لعرض مأساة الشاعر وتصوير حاله بتجسيد أحزانه وإطلاع القارئ عليها من خلال وجهة نظر محايدة هى تلك التى تمثلها أميمة، وبذلك تتحول المعانى المجردة إلى صور محسوسة وتتجسد الأفكار وتعرض نفسها من خلال صورة فنية بدلاً من أن يسردها الشاعر بأسلوب تقريرى مباشر. وذلك نفسه مافعله الرصافى فى قصيدة «الصديق المضاع» ص١٢٢ حين جعلها على شكل حوار دائر بين صديقين يبث أحدهما صاحبه شجونه ويبسط بين يديه أسباب ضيقة بالمجتمع ويأسه من الناس فيجيبه الصديق بما يريحه ويقنعه ويخرجه من دائرة التوتر والقلق والاكتئاب إلى الهدوء والطمأنينة والاستقرار - وبما أن «الصديق المضاع» حوارية فلا غنى لها عن شخصيتين وهما ليسا سوى شبحين يهيمان فى خياله ويبدأ الحوار بينهما بهذا السؤال :

أنا بك خطب أم عراك تعشق فإنى أرى حزناً بوجهك بادياً

ويذكرنا هذا الاستفهام بمطلع مرثية الخنساء الرائية :

قذى بعينك أم بالعين عــوار أم زرفت أن خلت من أهلها الدار

ذلك الاستفهام الثلاثى الاحتمالات الذى تأخذ بقية القصيدة فى الإجابة عنه وكذلك يفعل «سليم» فى قصيدتنا فى رده على سؤال «أحمد» :

أتعجب من حزنى وتعلم أننــى قريع بتاريح تشيب النواصيا
وقد كنت أشكو الكاشحين من العدى فأصبحت من جور الأخلاء شاكياً

ويسترسل صاحبنا فى البوح والإفضاء بما يعتلج فى نفسه من لواعج الحزن ودواعى الأسف من السلبيات الأخلاقية المنتشرة بين

مواطنيه فيتركه محاوره حتى يفرغ مافى جعبته ثم يشرع فى مواساته والتخفيف عنه بمثل قوله :

كفي مفخراً أن قد وفيت ولم يفوا
فكنت الفتى الأعلى وكانو الأدانيا

وقوله :

ألا رب شرجر خيراً وربمـــا يجر تجافينا إلينا التصافيـــا

ويجتهد فى إقناع صاحبه بقبول مافطرت عليه الناس فى الدنيا من صراعـات على أنهـا أمر حتـمى لازم لتـمايز الصـالح فـيـهم من نقيضه ويستعين في إثبات فكرته بمعنى الآية الكريمة «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» فيقول :

تموت القوى ابن لم تكن فى تباين ويحيين مادام التباين باقيـا

وينتقل من مواساته وترضيته إلى إشاعة الثقة فى نفسه :

وهبهم جفوك اليوم بخلا بودهم ألم تغن عنهم أن ملكت القوافيا
وأنت امرؤ تعطى القوافى حقها فتبدو وإن أرخصتهن غواليـــا

ويمضى فى نشر أنوار الثقة والطمأنينة فى جنبات روحه الحائرة بما يوعز إليه من معانى الاعـتزاز والفخر بشـخصه وبشاعريته حتى لايجعلنا نشك أن الشاكى والمشتكى إليه ماهما إلا الرصافى نفسه. وشاعرنا الكبير فى هذه القضية يذكرنا بحواريات إيليا أبى ماضى التى تنحو مثلها منحى تأملياً فلسفياً ونقدياً اجتماعياً مثل «ابتسم» و«الماء» و«فى القفر» و«الدمعة الخرساء» وهذه القصيدة الأخيرة على سبيل المثال تبدأ بتصوير الانزعاج الشديد الذى أصاب

صديقه الشاعر حين مرت بهما جنازة فتاة شابة فإذا هى تتساءل عن قيمة حياة يسرع الموت إلي افتراسها وتغبط الذين لم يولدوا لأنهم لن يعانوا متاعب الحياة ولن يصابوا بفاجعة المنون. فيرد عليها الشاعر بأن ماتراه من فجائع الموت ليس إلا مرحلة من مراحل الحياة السرمدية الخالدة فإن الروح لاتفى وإنما تتجدد حياتها على الدوام فيثلج حديثه صدرها وتهدأ بلابل نفسها غير أن الشكوك حول المصير ماتلبث أن تهاجمه وتطرد أنينه من فؤاده وتتركه حائراً معذباً يفترسه اليأس والقنوط .

ولايتسع المجال للموازنة بين ملامح الفكر والفن عند الشاعرين غير أننا لانحتاج إلى تأمل طويل كى نلحظ براعة الشاعر المهجرى الفنية حيث يبدأ قصيدته بمثير مناسب للموضوع وهو جنازة الفتاة التى تجعل القصيدة أقرب إلى الشعر القصصى منها إلى مجرد حوارية بسيطة بالإضافة إلى الشكل الدائرى للقصيدة الذى جعل نهايتها ترجع بها إلى نقطة البداية غير أنه فى المقابل لايصح لنا أن نتجاهل التزام الرصافى وإحساسه بالمسئولية الاجتماعية التى تفرض عليه أن تهدف القصيدة عنده إلى إشاعة الأفكار الصحيحة بين الناس دون الهواجس السقيمة ونشر المعانى الإيجابية المتفائلة الداعية إلى النهوض والتطور وتجنب الخواطر المثبطة للهمم أو التى تشغل أبناء مجتمعه عن أعباء مهمتهم المقدسة المتمثلة فى الأخذ بأسباب الترقى وإعادة الحضارة العربية الإسلامية إلى ماكانت عليه من سمو وصعود .

وهذا هو فرق مابين موقفى الشاعر المحافظ والآخر الوجدانى المجدد «الرومنتيكى» الذى آل إليه تطور الشعر العربى مع الأجيال التى أعقبت المحافظين .

ولايعنى هذا عصمة الشاعر المحافظ من أن تثور بصدره خماش الأفكار المريضة - وقد رأينا طرفاً من ذلك فى كونيات الرصافى وفلسفياته التى سبقت الإشارة إليها غير أن هذه الخماسين تبقى عند الشاعر المحافظ محصورة فى نطاق ضيق يسجلها ديوانه على استحياء فى أبيات محدودة وصور نادرة سرعان مايتخطاها ويحاصرها بما يناقضها فكراً وإيحاءً أو يغلبها كماً وتنويعاً حتى تكاد تنسى في خضم عباب زاخر من الأفكار الصحيحة المتفائلة .

خاتمة المطاف :

وهكذا تنتهى بنا الرحلة الممتعة مع ديوان شاعرنا العربى الكبير إلى الإجابة عن تلك التساؤلات التى طرحها الباحث فى تقدمة هذه المقالة المتواضعة حول قضية الانتماء عند الرصافى ذلك الانتماء الذى اعترضته عوارض من التمرض الثائر والرفض العنيف فجعلت قراءه يستريبون فى أمره ويحسون من مواقفه شيئاً غير قليل من التناقض والتخبط بيد أن التتبع المتأنى لقصائد الديوان بالدراسة التحليلية التاريخية أثبت بما لامجال للشك معه انتماء الشاعر وولائه لدينه ولامته. وقد تجلى ذلك من خلال دفاعه المستبسل عن الدولة العثمانية على الرغم من رفضه لسياسة سلاطينها وولاتها غير المسئولة ومقاومته المخلصة للنفوذ الأجنبى سواء حين تمثل فى محاولة فرنسا استقطاب حركة الإصلاح العربية فى مطلع القرن الحالى أو حين تمثل فى عدوان بريطانيا وفرنسا على العراق والشام وإحتلالهما أو حين تمثل فى تبعية الحكومات الوطنية حديثة الاستقلال للدول الاستعمارية وعقدها معها المعادهات المقيدة لحرية الوطن ويتجلى انتماؤه كذلك من خلال إيمانه بكون القيم الإسلامية هى الركيزة الصحيحة التى يجب أن تقوم عليها حضارة العرب المعاصرة وكون التجربة الإسلامية الشاملة بمبادئها وتاريخها وحضارتها تعد من وجهة نظره المثل الأعلى الواجب احتذاؤه والاقتداء به دون الحضارة الأوروبية المادية الحديثة من غير تعصب ولاإنغلاق .

وأما عوارض التمرد الثائر والرفض العنيف عنده التى تسببت فى إيداعه السجون ونفيه خارج بلاده مرات عديده فما هى إلا شاهد آخر من شواهد قوة انتمائه الدينى والقومى إذ لم يكن تمرده بدافع من

هوى شخصى أو مصلحة خاصة أو تره كامنه فى نفسه وحقد يضمره للقوم وإنما كان دافعه دائماً هو الغضب لكرامة الأمة والدفاع عن حقوقها السليبة وإذا كان الأمر كذلك فقد بات من حق ديوان الرصافى أن يقف فى المقدمة إلى جانب دواوين جمهرة الشعراء المحافظين الذين ازدان بإبداعاتهم أدبنا العربى الحديث والذين شاركوا أعظم المشاركة فى إقامة مشروع النهضة والتطور الحضارى فى التاريخ العربى المعاصر .

المراجـــع

- التيـارات الجـديدة فى الشـعـر العـربى الحـديث د . عـبـد اللـطيف خليف - القاهرة ١٩٧٧ م .
- دراسـات فى الشـعـر العـربى المعـاصـر . د. شـوقى ضـيق دار المعارف.
- ديوان الرصـافى المجـمـوعـة الكاملة - دار الحـيـاة بيـروت ١٩٩٣م.
- الشعر العراقى الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيـه د. يوسف عـز الدين - الدار القومـيـة للطبـاعـة والنشـر - القاهرة ١٩٦٥ م .
- العـراق بين دورى الاحـتـلال والانـتداب د/ عـبـد الرازق الحـسنى بيروت ١٩٣٥م .